

عبدہ خال

# الأوغاد يضحكون

قصص قصيرة



کتابخانه و اسناد ملی  
جمهوری اسلامی ایران  
NATIONAL LIBRARY AND ARCHIVES

مكتبات الكتب الالكترونية  
عالم العاشق

الأوغاد ينحسرون

عبد خال

## الأوغاد يضحكون

قصص قصيرة

جوى:  
تأين كالأخبة في حجرة شيخ بفرغ بها لىذكر خلاوة الخيال.  
أبرك لا يكثر بالأفهام .. فعلى تجاور وتنطف غيرما ونضحك  
سوتاً على فئات الناس .. نضحك على هؤلاء الذين يذكرون الخيال.  
هبله

## المحتويات

### الأوغاد يضحكون

- ١ - البلوزة ١٣
- ٢ - الراتحة قادمة ٢٧
- ٣ - الذهاب ٤٥
- ٤ - الماء يسير باتجاه واحد ٦١
- ٥ - الأوغاد يضحكون ٨٣
- ٦ - ماذا قال القسيري؟ ٩٧
- ٧ - نبت الخاق ١١١
- ٨ - جارتنا الصخرة ١٢٣
- ٩ - ... من أي الجهات تأتي؟ ١٣١

### قصص ليلى

- ١ - حين تبت الصرخة ١٤٧



مكتبات الكتب الالكترونية  
العاشدة

الأوغاد يضحكون

مكتبات الكتب الإلكترونية  
سوق العاصم



## البلوزة

نعمه كل يوم تعمق في شفاف قلبه ألعنوداً من الولد، يتبع ممساعا  
فتسيل رغبته ويزداد توتره. تعليه حمم جسده ويطور .. بطور .. بطور  
بعجلة يملك طوفان الرغبة، يخرقه في ماء أسن ويطوي قبل أن تغادر  
عينه، يذوي ككقلب ركض وركض فلم يكن نصيه إلا نصف ظل  
ولهائاً مديداً.

اليوم ولقت علي باب مغسله.

ربما قال كلاماً جماً. ربما تدلت من لسانه قطعة السكر قلعت شفبه،  
لحق ريقه الدقيق وماء عياله الشسكب. ربما فكر أن يقول كلاماً  
طازجاً. ربما سرق شيئاً من مفاتيها الطائرة ليطوي به عياله حين  
تتيسر الطريق. وربما انكسر أمام فتتها الطاغية فلم يقدر أن يقول

شيء إذ هناك، عبقاً في دماغه تشلج الكلمات، وبقي يهوج برغبة ظن أنها خرجت من مسام جفنه.. يتذكر تماماً ارتباطه وحيرته وبعضاً من مفاسل كلمات تثير الضحك تفوه بها، عندئذ ربما غدا نادماً على خروجها.

من كل هذه اللحظات الحافظة بقيت في ذاكرته تنف من لحظات التشتت التي اعترته. شيء وحيد بقي جلياً يهرك بهجته ويطفئ نشوته، يحدث هذا كلما تذكر هزيمة عينيه اللتين طالما عادت حسيرتين بعد كل غزواته لاعتراق سماكة الغطاء الذي يحجب حسن قوامها الزمان، المتمايل في الهواء كأنه غارق في نغم لا يمل من الرقص.

يضرّب جبهته بعنف كلما تذكر تشغاله بالكشف عن وجهها وتفرطه في التمتع بمشهد تدفق تهر صدرها المتعطر لريّ جبينها الشامخون.

كما تدم على تحاليل يديه اللتين لم توصلتا الزحف للمس أناملها حين مدت له بالبلوزة تدم وقضم أصابع يده اليمنى التي امتدت متخادعة لاستلام تلك الكيس الناعم، وعندما لم يشف غليله منها فحسها مراراً وربطها في سارية القسلة واستمر في عمله اليومي يده اليسرى يجذف بحر الأمانيات القادمة بمراجبه المتكرر.

كالعلم البعيد الباعث يذكّر بحضرا وهي واقفة في الحقل تغطي رأسها بشرشف برتقالي صبح بأصيغة رديئة كاشفاً عن لون حائل

بعد أن هتكت سره شمس حارقة فنكبت ألوانه وشحب وظل شاحباً يغور بروائح غطور محبة نافذة بينما تراقصت إيسامتها الطرية التشتتة، وزعت عيبتها فظهرتا كعصفورتين حلزوتين ترفرفان من عشيتهما. كان ذلك منذ عهد بعيد، ربما سنتين أو عشر سنين لم يعد يذكر بالتحديد. فقد نسي الطرق المؤدية إلى هناك وبيع في هذه الغسلة مستقبل الوحده الملاحه والملايس الرثة التي حافظت على روائحها ودرنها.

لا زال يشتر من ملايس العمال فيرفعها بعود عثسي ويثقف بها في برميل ماء يغلي ويركها إلى حين، وحين يسحبها يكون قفازها البلاستيكي فاصلاً بينهما.

يصف ملايس الرجال بأنها مقار لمن الأرض، ويعجب:  
- كيف يقبل هؤلاء الثيران على قطف رغباتهم وهم يحملون كل هذا العطن<sup>11</sup>.

ويؤاد حقه حينما يقف أمام الغسلة وهي تدور والدور، تعجن كل تلك الملايس فتخلط كل تلك الروائح لتشر من رائحة يشبهها برائحة منافحة النورس المحصية. أحياناً يحترز فيضع مشبكاً على فتحتي أنفه كسند يقبه انبعاث تلك الروائح، لكن هذا الاحترز لا يقبه انبعاثها، إذ تلتصق تلك الروائح مع نقليلها محترقة فحيف جمجمته عوة، فيترك مهمة إكمال المسيل لمعاونه ويتزوي جانباً، ويريق على جسده ماء ممزوجاً بماء الورد، وكلما دنت حضرا من خاطره هرب منها متذكراً أنه سيأثها حاصلاً كل هذا اللين<sup>11</sup>.

نعمه بمثلها للثبة وحصلها البنى بلا اكثرت فيهم:

وبعد ما مضت الأيام من غير أن تشر تعذيباته الحاصفة استعاض عن ذلك دندنة كل الألغاز المبهمة في مثل هذه الوقوف، تلك الألغاز التي لحد الجمال وتشرق السامع للوحة مبهمة. وكلما ابتكر وسيلة توصل صوته إليها بات كمن لا يسمع.

مع الساعة الواحدة والنصف تكون قد أنهت دوامها الفرضي،  
يقذف بكل ما في يده ويضل منتظراً عودتها. تقف السيارة أمام  
البغلة قائداً في هذه اللحظة (بالذات) لتكون عينا مفتحين على  
استماعها حين تدفع الباب تظهر ساقاها ناخرتين من تلك الغلالة  
السوداء قيرن قدامان كمثلتان مستديرتان تستهيان بحذاء يتغير كل  
يومين أو ثلاثة، ثم يستقيم عودها طامعاً المضاء بقامة طارئة رطبة  
تسلم عياتها على صبرها مخيلة ثمرتين ناخرتين في استوائهما  
أصابع يديها ناعمة مرئوبة كالأقلام الفاعرة تنتهي بأظافر مدبة  
منسابة أبقت على مداد فاني الأحمرار. تعبر الرصيف تاركة  
جسدها يراقص الهواء والأمكنة بينما تنوقف والحنها التحرم  
مشيتها وتبت الأمكنة في مواضعها كي لا تتساقط حجارها كسداً  
على احتفاتها، في كل هذا الأرتياك يزهو بمقدسها بيت واحد إذ  
تدبر قلبها في بوابة الواحدة فيضها ويعبس لقلبا أخلاق رذعية.

تغلغل عطرها في مستودع حباته الشمية وأصبح يهره من بين العطور كلها لكنه عجز عن أن يعثر عليه. وقف أمام محلات العطور محلاً محلاً، ففتح كثيراً من زجاجات العطور ودرس بها ألفه وظلت إجابته لكل بالهم:

- ليس هذا العطر الذي أبحث عنه.

احتفظوا الباعة ونداروا عن هذا الشعور متوقفين حينما أبدى استعدادهم لشراء زجاجة العطر المعبأة بأي شيء، وكان، وقبل استعراض زجاجات العطور يترك كلف ريال في يد عامل المحل لينأكد من رغبته في الشراء، يلف أمام العطور المربوطة ويشد قائمته رافعاً رأسه وحشياً عبيد، يهيم بعض الوقت حتى يتراسخ عضلاته تماماً ويسقط رأسه على صدره كمن دعمه تعاس ثقيل. يظل هكذا ويبدأ بملازمة زجاجات العطر، يستعد الزجاجات ذات التوابل الثمينة لانتظاره.

- الجمال السحري والسياسي، فالطريق الوحيدة منهما كانت جميلة فهي في النهاية وعرة.

برفق واللينة يمسك تلك الزجاجات، واحدة واحدة يستشفيها بعين، يترك لرائحة فرصة أن تتشبعاً بتلك الرائحة، ونفث زفيراً هادئاً متقطعاً رتيباً، تطفح حسرت من خلال مسام وجهه ويعاود عطر انتعاشه ملائمة زجاجة عطر مؤملاً أنها هي. ابتلي ألفه بين زجاجات العطر المسائي من دون أن يمسك تلك الرائحة لكنه لم يأس.

في العزبة<sup>(١)</sup> أحس رفيقه بأنه يخفي شيئاً ما عنهم، ففروا بأحاديثهم منه ففهم منهم وصياً رغبته في دأبله. وحينما أوشكوا أن يصلوا إلى هاجسه حمل عفتة البسيط وسكن وحيداً في بيت شعبي

(١) العزبة: سكن ذكورى يخص أولئك المصريين الذين هجروا بلدانهم وارتضوا بالقرية فاجتمعوا هناك في سكن واحد... وبعد انتقال أهل البلد في القرى إلى المدن المزدحمة أو العمل أصبحت العزبة غير مفيدة على المصريين بل تشمل هذه الفئة أيضاً.

تصدعت حوائطه وتقرص تحت أعمدته البالية كعمود تنكّأت على  
عصا لينة.

مع الغيش تكون مفصلته مشرعة أبوابها، وعندما تخطر وتدنس  
حسدها في السيارة يخلق محله مسرعاً ويعود إلى غرفته الكليية  
يستحضرها أغنية لا يمل من ترديد مقاطعها.

اليوم ولقت على باب مفصلته.

نزلت من السيارة وفي يدها كيس (بلاستيك) فانعم، كانت عباءة  
لرصداتها، لم تسر بصيرة عمودية صوب بوابة العماره، كانت  
مشبهتها الشمايلة تنجده صوبه، تسارع وجيب قلبه، أحس بالعرق  
يتفصد من جيبه مخرجاً كل العطور التي استشفها لتحل هي  
هناك. مع القرابها بدت أكثر فتنة:

- لو مسحت أريدك أن تغسل هذه الملابس..

- .....

- أرحو أن تحرم عليها فهي غالية.

- أبشري .. من عيوني.

- .....

- هل تريد غسلها بالبخار؟

- لا أعرف، الذي أريدك منك أن تحرم عليها.

- سأكون أكثر من حرم.

- شكراً.

انعطفت مستمعاً وتركت بين يديه شيئاً منها ومضت بينما ظل  
عزلها يحرس الأمكنة من أن تتسلط على بعضها!!

فقر داعل مفصلة.. واحتضن حسده بكثا يديه، لم يكن يعرف ماذا يصنع فقد توصل حواره حتى أنه خرج من مكانه وهرب أمام المفصلة واقعاً خاطيته وملوحاً بها بصورة دائرية في رفعة متوترة تحببت ضرب الدفوف وبانحة الألحان الجلية.

أقسم أنه لم يسمع كلمة شكر بهذه الرقة والعمرة والعسل والدلال، بل لم يسمع كلاماً عادياً يتوصل فيه ترفي درجات الغناء .. هل راوده هذا الحلم في السابق؟ أن تأتيه هي نفسها وتتركه ينتزه في بشرتها الغضبية وتخالته رؤية فرط تهوى في وادٍ سحيق ووميض للأمدان عبت بشقة تهدأت كتصرة زمان تشققت فاضحة لغوج حبياتها.

تقف على أقداب عبيد وتعقر سنوات عجفاً من ملوحة الغربة وجفاف الجبال من طيف أنقى تحرق الأيام البالية الطامضة.

يقف على الكيس (اللاسلكي) منسجماً، وكشف عن ملابس ملهاء ناعمة لغوج بذلك العطر الذي أرفقه البحث عنه، دلف إلى داعل المفصلة وتر محتويات الكيس، غمر من أنه بين تلك القطع:

تنورة كمرهب أسود ضيقة لم تكن مبطنه، ذات فتحة في أحد الجانبين تصل إلى الورك، مغلقة بثلاث أو أربع أزرار ميكوسة بلون أحمر، وثمة رسم يدوي بالفلون الأبيض على الجانب الموازي للفتحة، وهناك رسم بارز يدي تشكيلاً عشوائياً يوصل المدفق فيه لهيئة امرأة انكفأت على نفسها، تضم وردة متفتحة بينما كانت البلوزة من الشيفون الشجر بألوان مزوجة بالأبيض والأسود والأحمر لها فتحة صدر واسعة بيافة عريضة بلا كم ترتبها شرائط

ندلت من الحسنة، كلى شريط جمع الألوان الثلاثة في حزمة واحدة.  
بينما ظهر ذلك الرسم البارز الشغول أسفل الكنف اليسرى مفترشاً  
كل الألوان.

غمس وجهه وسط البلوزة واستشقق عبرها بينهم، وفرد لها بين يديه  
تحيل نهدبها وكلما رفع البلوزة من جهة الصدر هبطت .. تخيل  
نهدبها يستديران ونظر حلماتها في رعدة شقة، هجس بداعلة:  
- عما كشافعين فاضحين .. لا .. ربما عما أكبر قليلاً..

أخلق مغسلته، وحماً الكبس البلاستيكي تحت إبطه، عرج صوب  
السوق، وقف عند إحدى البسطات وطلب من البائع أخضر أنواع  
حبالات الصدر.

أي مقاس تريد؟

ارتبك وأحس بالخرج بعنبره، حاول بيديه أن يقيس حجم ذنبك  
النهدين:

- هكذا!

- ألا تعرف المقاس..؟

مر رأسه مولفداً، فتابع البائع حديثه بصلف:

- أمي زوجك؟

شعر بالنهاة وليس لو يبيض بحلق هذا البائع غير المهذب، استقر  
رأيه على (ستيان) متوسط الحجم:

- كهذا



تناول حمالة الصدر مستعجلاً العودة، أفلق باب غرفته وغرض الثوب وركب عليها البلوزة، بعد أن حشرها بحمالة الصدر فتكون نهدين مبهضات لم يروفا له، فيث مخذلة وأخرج منها قصاصات أقمشة متبرجة عماً بها (السنتيان) وألبسها البلوزة، تكوير السنتيان مظهرأ نادياً منصبأ بينما ظل الشدي الذي يحاوره مبهضاً يدھر إلى الضحك، أخذ ينقص أقمشته حتى تساوى واستدار مع الشدي الآخر. لم يأنس لهادين الشدين فقد هبطت ربواتهما وتكرمتا من جهة الخلفتين، وكلما جسي أحدهما هبطت ربوته من غير أن تهتز وتربو، أو ترتعشا كعصفورين ذبحا يتصل مثلوم. شعر بالضيق .. تذكر (المايككان) - تلك الدعي التي يعرض عليها الباعة أفخر الفصائل - ركض إلى السوق وعاد حاملاً إحداها .. ألبسها الثوبرة والسنتيان وعلج عليها البلوزة. أدعته أن تفقد المرأة نصف جمالها حينما تكون متلعان فركض مرة أخرى لداعل السوق لأهأ سوء تقديره ليشتري شعراً لولياً مستعراً لتلك الدعي ويعود لأهأ يصلح جمالاً تربع في مخبئه وفسد بين يديه.

عندما انتهى من إلباس (المايككان)، كانت تلك الفتاة تقف أمامه قائماً .. تفور رغبته وسعار من جحيم الخيالات يغذي مخبئه، فينلظى ولهمري يحور مياهه ساحنة متدفقة.

كانت تهمس في أذنه:

- لو سمحت أريدك أن تغسل هذه الثوبرة وهذه البلوزة.

بذل تلك الجملة بما يشتهي أن يسمعه منها:

- لو سمحت أريدك أن تسترخ هذه الثوبرة وهذه

البلوزة.

مر عليه ليل لذيذ سمع فيه منها كلمات لم تفلح امرأة لرحل.  
وفي الصباح وقبل أن يغادر فلقها في ثغرها ومضى إلى  
مجلسه جذاً لا يخطر من فمه أغنيات هربت من ذاكرته منذ زمن  
بعيد.

عندما استقر في مكانه حضرت وهي لئلا القضاء يتسائل قائمتها التي  
لا تعرف الانحاء بينما كانت مفاتيحها تغرد لصباح هنيء برف  
عظراتها الشريفة. قرّ من جلسته ومد حلقه صوبها فصرته متناسية ما  
فعلت به اليلة البارحة إنها هي تحرك وتغور من مفاتيحها سحر ليلة  
البارحة ) .. هتف بذاتك:

- كانت البارحة أقل طراوة من الآن..!!

~

لفزت حضرا أمامه فتاة بالية امتص الجوع هودها، وجرى  
العطب بين راحتيها من مسكة السجل، وحرف سبل الانظار  
حيلي صدرها القدين كانا يتعضان لقدم من زرع في مخيلتها  
رغبة الوقوف عليهما والتغني على سهولهما بأغنيات الرعاة  
العائدين قبل مياحة اليلة ماطرة، تحدث خفا مهدمة، تقول الرسائل  
القادمة من هناك:

- حضرا تقرب من الثلاثين وهي ما زالت تنتظرك

- حرام عليك لم تعد صالحة للزواج إلا بك.

سقطت كل ذاكرته حينما لوت عبقها بانحائه .. فلفز من مكانه  
صالحاً:

- والله

أحرم . فيما بعد . أنه لم يبق إحصائها بشئ المذمى . وجعلها عقل  
ماء قلبه في كل الاجتماعات.

~

يعود ليلاً، يقف أمام تلك العائنة التي صنعها، يقبلها، ويحرك ليله  
الراكدة بها .. كان قد هباً غرفته (بلمبات) ملونة والعمدة الضوء،  
يحمل تلك العمدة ويجلسها أمامه مباشرة ويحمر معها في الواسع  
الهدوء .. في آخر مرة أحس بصحتها فحارط عقلها وأثم عذرها:  
- لم لا تتكلمين يا حبيبي!!

غزت باله فكرة استوحشت تضاريس محيطه فأخذ يخطط لها كي  
تغزو نفوسها وتخلصه من عرس قائمته وقيل أن يفسد عيشه  
كانت خطته قد اكتملت وأقيم تنفيذها.

~

هباً نفسه أمامه فقد وضع المسحلة فوق طاولة استقبال خدمات  
الزبائن ووصلها بالكهرباء وأضعا فيها شريطاً جديداً بعد أن تأكد  
من حساسية الشفاهة لأي صوت يحول في محيطه .. وانتظر  
مجيئها.. يوم يومان، وفي اليوم الثالث وقفت أمامه، راحتها نصيبه  
بالخدر، فاحتلقت أوجاعه مع واقعه وكلما ألوشك أن يحدث ذلك  
الخط يضر به عذبه يله فويلج بروق إحصائها تنبع:  
- هل انتهيت من غسل الملابس؟  
- ستكون جاهزة بعد أيام قليلة.  
- لا، أرحوك فالأ أريدنا عاجلاً فلهي مناسبة.

- أنا حريمي على غسلها وكبتها دون أن يحدث بها أي عشب... ألا توجد لديك ملابس أخرى تودين غسلها؟
- لا... سأعود غداً لأغسلها

☪

جلس مع تلك الدمية يصفف شعرها وأقار صوت المسجلة وأخذ يسمعها، انخفضت مخيلته عن فكرة مضنية: أحضر جهاز تسجيل آخر وأخذ (يبتلع) من حملها حملة ترضيه وتطيب مزاجه! وبعد ساعات من اللجة ظفر بهذه الحملة:

- هل انتهيت؟ لذي مناسية، سأعود غداً. أزعجك  
سأعود غداً.

كان المسجل يدور بتلك الحملة في مسامحه مراراً وهو في غياهب النشوة يستغيث بها ويغرق في لذته مجاهداً في إغرائها للبقاء إلى جواره يتوسل منكسر:

- إني فانا لا أقدر على فراقك لحظة واحدة.

بينما صوتها يهله متفاعلاً عذراً:

- هل انتهيت؟... لذي مناسية، سأعود غداً. أزعجك  
سأعود غداً.

☪

مع ذاعها وإياها تسأل:

- هل انتهيت؟

فيسرف مراعيه السابقة.

وكلما جاءت سائلة، كسب وقوداً يغذي محركه تلك القادمة.

٢٥

خطت خطواتها فتساقط بداخله غيث الأمنيات، ثم وقفت أمامه  
كزهر قلب القضاة فجأة، تخلق صوتها عن بعض ركة في حضرة  
قائمة لذات من صغر لرجل تصغر فيه كل شيء واعتز في تصغره  
شارب كثر وصوت له صرير ثاقب:  
- هل انتهيت من غسل الملابس؟

.....  
- ألا تسمع؟  
- ليس بعد.

جاء صوتها مرتوياً بالظفر:  
- شهر كامل ولم تنته.. والله لو علمت أن تخطئها من  
جديد لانتيت.. أعلن أنك بعثها أو أضعتها.

صاح متكرراً:  
- تقولين بعثها.. حرام عليك.. بعثها.. أنت لا تعرفين  
.....  
- إذا أضعتها؟

ضرب الرجل المصاحب لها الطاولة بعنف:  
- الآن تحضرها.. أفهمت؟

خرج من مغلسته مهزوماً، وانعطفت في شارع ضيق. كان يشعر  
 بهما يتبعانه. لم تلتفت إليهما وأدار مفتاح الباب ودخل غرفته  
 .. شاعداً تلف شاحنة ساحرة وعطرها يتخرج من إبطها يتكاسل،  
 احتفظها، ثم نقرها بهما كأن صوتها يأتيه منعماً:  
 - هل انتهيت؟ .. لذي، ساسية، سأعود غداً. أرحوك  
 سأعود غداً.

طرق عتيف على باب بيته يكاد يسمع الأذان، تشاغلته يده بعمرة  
 الدمية، كرم البلورة والخنزيرة في صدره، نهاوى فجأة، شعر بالدويان  
 ونار حامية تصبوه، فأخذ يحسش بالبكاء فهما كان طرق الباب  
 تعالى بضجيج.

## الرائحة قادمة

قصة قصيرة<sup>(١)</sup>

شاهد لا يمكن أن يعود شخص لمرده.

على ضوء القمر المسترسل بفحاجة، تبرز قامات من على جدار منخفضة ونهبط كحجار ثقيلة - داخل السور - وتلب من مكان هبوطها صيحة ربما تفيض أردتها البيضاء وربما لا تحرص على ذلك، تتشعب عطوراتها في مياق محسوم، وتندس هناك بسرعة فائقة وكأنها تلعب لعبة الاحتيال، البعود الصمت غنياً مداعياً لاستقبال قادمين آخرين يحكمون سكونه بقرى نعالهم ودمدملهم اللوحشة لحر متهيون من جلال المكان.

— هل جاءت القديسة بأجمعها؟

وبما كان هذا الخطر محققاً لي لأن أسابق تلك القامات محللتها وأحجز مكاناً قبل أن أحد نفسي متفوقاً في الغراء.  
— لم أكن أتوقع أن أحد الجميع هذا.

بعد أن خرجوا من شفتي برنخفون تذكرت تصيب العرق من وجهه وبديه المتعززين فلفزت من جلستي مرهوباً.. الآن فهمت فحوى كلامه وسر ذلك الرقاء الأبيض الذي كان يتمسك به، هبت من جلستي قزحاً حين سقطت فكرة خامضة ضاربة في قام جمعيتي وعكرت دوائر البياض.. لدغني هاجس ضياح الفرصة الأخيرة وقبل أن تنفج الفكرة التي حلت برأسي كنت قد عبرت منحنيات الخرافة كومبوز جرح الأمل بلحظته وغاب.. غاب مطمئناً لأنه وجد اتفاقاً بلحظه كما يليق برق عاطف.



ضجيج وطرق باب لا يمل

كان الليل مستبشراً بيده الذي اكتمل وتدلّى كفتندبل متوهج خفيف وطأة العتمة الرابضة بين الأزقة ومحا وحشة السحبات الضيقة.. كان بالإمكان أن يكون ليلاً مثالياً للسهر والمزح لجذب طوارب الذكريات القديمة أو تبادل همسات عشاق أمتاعهم البعد.. كان بالإمكان أن يكون مثالياً لأي شيء يمارس في حي ضمر ولم يعد مرئوباً بأعزازيج السمار والدفوران حول نار مستعرة في لعبة الزمار المهجعة للزوال والبقاعة.. كان بالإمكان أن يكون ليلاً مثالياً



لولا تلك الرائحة السعة التي علفت في الهواء ونوزعت في كل  
جنيات الحارة لتدفع بالناس خارج بيوتهم بحثاً عن نسمة هواء  
يحددون بها حياتهم التي يشعرون أنها تنفص وتغور.

رائحة عتة.. (كتة ليس وصفاً دقيقاً لتلك الرائحة).

فلم تكن رائحة حمرة للكدمات السخايات أو جريان لبناء الأسنة أو  
سهك العدال الشجمع في ثنائيا أيدانهم بعد يوم من عمل مضن  
وشاق أو عتة أولئك الذين لا يعرفون تف شعر الإبط فيلي صنتهم  
يقروح من تحت أردابهم الثقيلة، ولم تكن رائحة لسلك دهنك تحت  
أنعة شمس حارقة أو شياط فطن احترق أو زناعة الدهون المساية  
على أرضية الخي من صاجات الناعة، ولم تكن رائحة مروحة اللحم  
قاسد أو مذر يخرى قصر قبل الألوان أو حامضة كخبر نخر فأعطن  
..رائحة جمعت كل تلك الروائح وساحت في الأمكنة ولم تتمكن  
أحداً من استنشاق الهواء بسر نفثات عاجية يحرك كل الألسن  
سؤال برف كججاج مصفور:

- من أين تأتي هذه الرائحة؟

28

لم يعد أحد قادراً على النفس.

خرجت الحارة من بكرة أيها الباحث، عن مصدر تلك الرائحة التي  
حوّلت جيهم إلى قضاء خالق، ولم يفرحوا إلا بعد بأس قاتل من  
أن يجدوا حلاً لدى الجهات الحكومية التي انظمت على أعقابها بعد  
محاولات بالسة لاكتشاف مصدر تلك الرائحة.

ففي البدء ألهمت البلدية لسوء خدماتها وتقاوس عملها عن حمل حاويات النفايات وقذف محتوياتها بعيداً عن الأحياء المزدحمة بالناس، وقد تعددت الشكاوى وتسرّع أحد رجالات الطوارئ المرموقين بإبصار شكاوى تلك الرائحة إلى مدير فرع البلدية المسؤول عن هذا الحلي ولم يبادر للاستجابة إلا حينما نشر خبر صغير في جريدة «الطوارئ» المرموقة تحت عنوان (رائحة غريبة تسرق الهواء).

في اليوم التالي رفضت عشرات عمرة من عربات البلدية وحملت جميع القمام ونشرتها على أطراف المدينة، إلا أن الرائحة ظلت رابضة في مكانها فقامت البلدية باستبدال الحاويات القديمة بحاويات جديدة... وعندما تفاقم الأمر وتفاخرت الشكاوى لجهات متعددة تحرّكت الصحف لمتابعة تلك الرائحة فنشرت جريدة «الشرح» استطلاعاً مطوّلاً وقد ظهر أهل الحلي مكسّمي الألقاب وهم ملقون على جوانب الطرقات كمن أصيب بوباء فتلك، ورافق إحدى الصور هذا التعليق: (أحد مواطني الحلي وهو يستنحدي الهواء). واستضافت الصحيفة في ذلك الاستطلاع مسؤول البلدية الذي نفى أن يكون هناك تقصير من قبل جهته وحاول أن يزجج التهم في اتجاهات أخرى، فتوجهت إشارة الاتهام إلى مصلحة الصرف الصحي إلا أن هذا الطرف تنصل من التهمة بوجود مصادر في استحبال معها بقاء أي سائل، ولذا أكد نزاعه مرفقه أثول عشرات من عمال الصرف الصحي ليصرفوا المياه المراكلة، ولكي تنقل إشارة الاتهام في جهة أخرى بعيدة عن مرفقه لتعلل بغياب مركز صحي بالحلي مما نتج عنه تفشي هذه الرائحة، مؤكداً براءة مرفقه من إحداثها. فتحرّكت وزارة الصحة وأرسلت أطباءها وضيخت الأوكسجين مجاناً ليومين متتاليين، وعندما لم تفلح في إخماد نيرانه انقلب أطباؤها وعادوا من حيث أتوا.. وصحرت مصلحة الأرصاد

وحسبنا البينة أن هناك قرأاً للرائحة لا يعرف مصدرها بالتحديد، غاية وجود الطول من أي نوع تسبب في إحداث تغير الرائحة، وإزاء هذه المشكلة التي تنعزل منها الجميع، شكلت المحافظة لجنة لاستقصاء أسباب انبعاث تلك الرائحة الغريبة وجاء في تقرير اللجنة ما يلي:

بسبب تجاور البيوت وعدم نظافة أهلها والسياب كثير من السوائل مجتمعة ظهرت هذه الرائحة. والاقتراح بث الوهي وإلزام أهل الحي باتباع النظافة في كل معاشاتهم وتوصي بالعصاق لوحات إرشادية لإزالة مثل هذه الروائح مستقبلاً.....<sup>(٣٢)</sup>.

وبهذا التقرير نسبت الجهات المسؤولة ذلك الحي ورائحته وبقي الناس يقرأون اللوحات الإرشادية التي ألصقت في جميع أنحاء الحارة ويواجهون لاستنشاق الهواء.

وعندما تركت الحارة للتدبر حل مشكلتها ظلوا لأيام ينادلون الرأي وحدق بعضهم على مقولة أحد رجالات الحارة:

— هذه الرائحة رائحة شطص مات.

هذه المقولة تناقلتها الأُخريين مما جعل سيارات الشرطة تعشش في أوصال الحي كطيور غلات لأركانها فجاء، وبعد تفشيش ذليل كذبوا تلك المقولة وتركوا أمراً صريحاً معلقاً في أذن أهل الحي:

— ما تقومون به يدخل ضمن إزعاج السلطات ومن يكرر اللقطة فسجد عقاباً صارماً.

لم يكتفوا كثيراً لهذا التحذير وحلّس الكبار منهم لإحصاء الشغبين

من الحارة.. وعندما لم يجدوا شخصاً غائباً قال قاتل<sup>(١)</sup> منهم:  
- ربما يكون البيت غربياً أو حيواناً التحشر في مكان لا  
نعلمه. وتواصوا بالخروج للبحث عن مصدر تلك  
الرائحة.

الثلة خرجوا جميعاً للبحث.

≈

أعيش في هذا الحي منذ زمن طويل..

حي بنعم بكل شيء إلا الفرحة. لم أرَ لحدّ الآن ينسم أو يتبادل  
الضحك، الكل يدرس حيونه في الأرض ولا يرضعها إلا لعداء، ترتفع  
الأيدي في تطويحة مبتورة وتعود إلى مكانها بسرعة متاهية،  
ارتفاعها يشي أنها تحية وفي حيلة الأمر هي سائر لحجب العين  
من الانفعال عن الطريق المرسوم لهذا القطن هذا البيت منذ  
عشرين عاماً، تزيد قليلاً، لم يداني فيها أحد الزبارة ولم أجالس  
أحد لمعرفة أخباره، وخلال هذه السنوات نبت في داخلي العزلة  
ولم أجد حريصاً على معرفة ما يدور في الجوار وأيقنت أننا  
نعيش كالحفلة الواحدة غير قابلة للانقسام أو ككثير متجاوزة كل  
شخص في فرد.

حياة قملة وباردة، يخفي يومك وأنت منشغل بلوازم حياتية جامدة  
وإذا أزهق أمل طارئ في حياتك فهو فرحة بأن يتحقق في الأيام  
القادمة، وبهذا لم ترحل كل الأفراس للأيام القادمة التي لا تأتي..  
أخرج يوماً من الصباح لياكر للعمل وأعود مع المساء كشخص

مرهقة عليها أن تنجز دورتها اليومية مهما حدثت، وتووب مع المساء لتخس: حلف الليل في إغفائة قصيرة وتعاود حركتها في صيرورة لا تنتهي.

مضى شهر كامل ولم أوف بالوعد الذي قطعته على نفسي، فعين كانت تبحر آخر أغاسها أصابي التلمع ليس لونها ولكن لشعور مياشت بالنبي سألني في هذه الحيلة وحيداً كأنية أفرغت من مائها وبقيت هكذا تستقبل الغبار والهواء العابر.

وأصبح من عاتاني أن أقف على قبرها بعد صلاة الجمعة، بقي ذلك اليوم الوعيد الذي أعدد نفسي متحلاً من أعباء العمل أنهض في الساعة الثامنة والنصف وأصل متشعلاً بتطيف البيت وإزالة الأطلال القرمزية هنا وهناك، ثم أدخل الحمام وأزق الماء على جسدي لساعة أو ساعتين من دون أن أفعل شيئاً سوى استقبال تلك المياه والعيش بمحتويات الحمام أو برغوة الصابون التي تتكوم على فوهة مخرج البابو. وقبل أن يؤذن المؤذن أكون جالساً في مقدمة الصفوف غارقاً للفرقة، وبين الحين والآخر أترك عيني تتربصان بمجموع المصلين في ركوعهم وسجودهم أو تشابعان تعبيرات ملامحهم المتجهمة.. وأكون من أولي الذين يخرجون حيث أفسر مباشرة إلى مطعم (صباح الخير) وأتناول وجبة الغداء بينهم مبالغ فيه، حيث طرأني على الغداء هنا نشأت علاقة لغة مع صاحب المطعم الذي كان يجذب كرمياً إلى جواره ويدعوني لمشاركته في شرب كأس شاي فطيل أرشفه بينما ينشغل هو بحاسبة الزبائن. كان جلوساً غيباً أمارسه كل يوم جمعة. فلا حديث يكتمل بيتاً، إذ مع أول زبون يكون مستعداً للحاسبة يذهب حديثاً مضحكاً مسجماً، لكننا ألفنا ذلك وتعودناه. وهكذا أودعه قبل أنان العصر بقليل وأترك صوب

لقبيرة مؤدباً الصلاة هناك وبعدما أقف أمام قبرها أثير بعض السور  
القصير وأسرد على مسامعها هساً كل ما حدث خلال الأسبوع  
المتصور أخبرها بكل التفاصيل وأمضي وقد تحللت من الكلمات  
التي تحمرت في فمي خلال بقائي وحيداً.

وقفت مذهولاً أمام قبرها، كان قبراً فارغاً وقد كشف غطاءه، بعد  
تراجع حنكر نطمت في داخل القبر وهائي منظر ذلك السبل المحزون  
والذي يتحرك بسرعة ويترث قلباً.. يقضم شيئاً ما ويحرد لمركته  
الشقة.. كان الطيار يقف بعيداً عني. تحركت صوبه صائحاً:

- أين صاحبة القبر؟
- لقد جمعت عظامها وسندفن في مكان آخر.
- كيف هذا؟
- هذا ما يحدث فني.....<sup>(٢١)</sup>

وبالتفاته مدققة رأيت كل القيور مكشوفة ومهيأة لاستقبال نزلاء  
جلده، وقد اعتفت تلك الحشائش الخضراء للفرقة على بعض  
القيور. كانت آثار نفث عشوائي لتلك الحشائش يادية حيث بقي  
بعضها متمسكاً بجلوده وميداً مقاومة لللباس الرافض القرض  
اعضرو أصغر بالأحراف، وعلى اعتدال النهر وفي خطوط متوازية  
فتمت فحوات غائرة في الأرض.. شعرت برعشة تعري جسدي:

- هل تختم كل القيور؟

الحرق للتصيب من جهه والرداء الأبيض الششح به يشان بانشفاده،  
أكان لا بد أن أتبعه لأعرف السبب؟ كنت أسير خلف عشاء  
المجمل وأدرف الأسئلة المتلاحقة فلا يشففت أو يحيب. أيقنت الآن  
أن الأمر لم يعد محدداً فقد توجه صوب أحد القيور مستمعلاً

وسقط داخلها كنت ألع بديه ترتفعان وتقربان من ضلعتي القبر  
بعرش. لم أفهم جملة المأثرة:

- أيام فلان وستجد قبر زوجتك مغلقاً، لا لا بل كل  
القبور مغلق. لن تجد قبراً مفتوحاً.

مرأت به في داخلي، وحدث القبر زوجتي، مدت رأسي فلمحت  
الشمع قد صعد حبات القبر بمأثرة عتيقة، لم لا أحضر له  
أصصت به يقترب من قدمي اللتين تجاوران فتحة القبر وينهش  
إصبعي التي باتت من مقدمة الحذاء. فرحت وخرجت على عجل  
بينما كانت هذا القبر لا تزالان تعرشان «بضلعتي» القبر في محاولة  
مستعجلة لإغلاقه...!

بعدها لم يعد لي مكان أذهب إليه، ففي يوم الإجازة أضل أحوام  
داخل الحارة وفي أحيان أجلس قرب النافذة أطلع لشارع مقفر من  
قارة سوى سيارات عابرة أو شجرات عطر ترف ورفاتها بتفاصيل  
في استجابة للندف هواء رطب وتبدو في تمايلها كعجوز عريضة  
جلست لتفاخر بقصة قديمة عبرت صحباها، وقد أفلحت عن الوقوف  
هناك حينما لأمني الجيران:

- أنت تقف لكشف حورة البيوت المجاورة؟

- أنا لا أرى أحداً.

- لكنهم يرونك وأنت تقف لكشف حوراتهم.

- والله لا أرى أحداً منهم.

- لهم.. عليك ألا تقف هذا.

أفلحت عن فتح النوافذ، ولكني لا تؤسوس لي نفسي وإلقاء نظرة  
عابرة من إحداها لمحت بإحضار عامل تلحيم ليهب لحاماً ثقيلاً

على ردقات الوافد ويسمر الزحاج بألوان حديدية. وعندما انتهى وحدث أن البيت غدا معصاً وأكثر أمناً، وأصبح من عاداتي محبسة التنقل لوقت طويل وفي أحيان استيقظ وأطلقه أو أتركه حتى أعود.

منذ أيام لم أجد أطيل المكوث داخل البيت فقد انبعث رائحة وحيدة ظلت تجوس في مكانها دون أن أتمكن من معرفة مصدرها. ضلت في البدء أن إغلاق منافذ البيت يؤدي لوجود مثل هذه الرائحة، ولولا عشة من ثقل الجدران التي أسر على تلك حوراتهم لعدت بالعامل لفتح كل الوافد، إزاء هذه الحشة أقنعت عما نويت وأخذت ألتصم مصدر تلك الرائحة فلم أستطع تحديده بدقة، وعندما فتحت الباب انبعث تلك الرائحة فواردة حتى كدت أطرق الباب على جاري متوسلاً إليه أن يرحمني بتطهير داره حتى وإن لزم الأمر إضرار أحد العمال للقيام بهذه المهمة على حسابي الخاص إذ لم أجد أشك بتأ أن الرائحة الكريهة تبعث من شفته:

- ماذا لو طرقت عليه الباب الآن؟.. ماذا ستكون ردة فعله لو التهمته بتلث هذا الاتهام؟ وماذا يحدث لو لم يكن داخل البيت؟ أوه ستقبلو كرامة لو لم يكن بالمداخل، فلو التهمني بالترصص بأقل منه.. ساعنتها لن تجدي شكواي من هذه الرائحة<sup>(١)</sup>. الحق الأمثل أن أقدر أمري.

فمت برش منطقات ذات روائح زكية على مدخل البيت والجدران ورششت بعضها على باب جاري على أمل أن تغلب العلة الجديدة



على الصلة الجديدة، وانتظرت ذهاب تلك الرائحة ثلاثة أيام، وعندما بقيت توجهت إلى الصبدية وأحضرت كمادة ووضعتها على أنفي. ومع ذلك ظلت تلك الرائحة تجوب البيت بهذا

هذا اني فلور للغاية فمع مظاهر الرفاهية التي تبدو اللعين إلا أن ثمة قذارة تبعث من مكان خفي، ثمة شيء يفسد ويحتل منطقاً رائحة تذكروني رائحة القصور الملوثة.

كنت أظن أنني الوحيد من يضع الكمادة على أنفه لكن هذا الظن غاب، ففي صلاة الجمعة رأيت المصلين يدخلون المسجد مكتمعي أنوفهم وبعضهم يحمل زجاجات العطر وصبيها في زوايا المسجد. ربما كنت أول من وضع كمادة على أنفي واقتدوا بي من حيث لا أعلم ..

حياة رتيبة ومملة، لا شيء يحدث، أيام ساكنة مستسقة حيث نزع أوراق الشجر علنا نعد عائلها شيئاً مزهراً. كل ورقة تنزع تبثها بالحسرة .....<sup>(١)</sup> ثم لا شيء يحدث!!

جلست لأنتظر الغد، فما زالت عذائب الساعة تقرب من التاسعة مساءً، كان الوقت يسير ببطء متهاكناً، بينما النظائر بشعرك برداء الوقت.

صحيح وعزلي عفيف يتواصل على بوابة المنزل - من ذا الذي يخرج من فيه في هذا الوقت الهائلي لولادتي؟

لمعت متباطئاً وأفادت عكرة الباب فاندلعت مجموعات قطرة من

الناس واضعين كتاباتهم على أنفسهم وبقيت عيونهم تحول في المكان:

- هيه .. ماذا حدث .. ماذا بكم؟
- ألا تشم هذا المكان الطبع من شفتك؟
- شفتي !!
- نعم رائحة أشبه رائحة كلب ميت.
- ومن أين يأتي كلب لدخل الشفة؟
- دعنا نرى.

انطلق الجميع للفتيش الشفة، وفي لحظة بصير قلبت رأساً على عقب، كان رئيسهم يحير متشعباً أركان البيت ووقف أمامي مستغرباً وصاح:

- هذه الرائحة مبنقة من جسدك ..

فغرس جميعهم أنوفهم في جسدي ككلاب تتأكد من حاسة سندهم وتصاحوا:

- هو مصدر هذه الرائحة.

صاح الرئيس:

- أنت رجل ميت بلا شك !!

كنت على وشك قذف ما في جوفي حينما أكتشفوا أنوفهم بجسدي وفازت الرائحة نفسها من أجسادهم، ولكني أنا أكد تخامك على نفسي وغرست أنفي في صدر كبيرهم وصحت به مفرزاً:

- وأنت أيضاً رجل ميت فالرائحة نفسها تبعث منك.

نشتم ساعده وحفل .. نشتم أمانه فحفظت عهد

وأشعلت رعب البقية:

- وأنتم أيضاً!

وكأضياء الشغل كل منهم يشم جزء من حسده وتفرقوا صامتين.

~

كان الخيل مستبشراً بالكمال بدوه، يسرف في صرف ضوئه فيبدو  
الأشياء واضحة خاطرة.

جلس واحداً وأقامه تكاد تنقطع، وأخذ يعد يديه عن أنفه يعد  
نفسه عن نفسه وتقف في محيطة صورة القيار والعرق يهيب من  
جيبه متلفعاً برداء أبيض ويديه اللتين تعرشان بضلعتي القمر وصوته  
الواثق:

- أيام فلال وسجد قبر زوجتك مغطاً. لا، لا بل كل  
القبور متفلن، لن تجد قرأ مفتوحاً.

فر من جلسته كالمشوخ ونيش عزانة ملاهيه ووجد رداء أبيض  
ناعماً تلعب به على عجل، وشق منحنيات الخمار بخطوات ثابتة  
مستقيمة وضوء القمر يعكس ظله على الجدران فيلمح أقبلة لا  
حصر لها تتشجر على ظله. لم يعد السير محدثاً، هرول.. وكلما  
لسعة سباط الحرف زادت سرعته.

كان سور القبرة منخفضاً لظره على عجل، وأعماله انعكاس ضوء

اليد على أشباح كثيرة تطفح بأرونها البيضاء ثبتت للحفظات على حدار القبرة وتفتقر للداعل وتسير حثيثة الخطى لندس أحاسنها في تلك الصور المفتوحة وتعرش لبعض الوقت قبل أن تجذب «سلفتي» القمر فيطبق بوضوءها بجفل لها سكون القبرة، بصعوبة ومضى إلى قبر زوجته فرجده مغلفاً بهما كان القمر الذي يجاورها لا يزال شاغراً تثلثت حركه وأرعبه عجلة أشباح تسابقه شكه وسرعة عاطفة جذب كرسياً مزوياً - كان تلتقي هناك - ولقدف به الداعل القمر ورمى بنفسه وبحركات متشنجة سعد على الكرسي ومد يديه وأطبق «سلفتي» القبر، فهبط ظلمة فاقعة. نحي الكرسي جانباً والتحف بردائه الأبيض وفرد قامه وتقدم في رقلته باستسلام.

#### ١١ يوليو ٢٠٠٠ م

وجدت هذه الأوراق الصفراء - والتي نشرها كما هي، علماً أنها وجدت مغلفة في كيس فابلون - وجدت في إحدى القابر ومعهما أدوات يدائية مكنولة من قلم وكشاف صغير وملابس تمزقة تعود لطلوع القرن، وصاعرة وحذاء وكرسي بلغت من قرائمه قاتمة الأمانيان. وما زال علماء الأنثروبولوجيا صامتين إزاء إثبات حقيقة ما تحمله تلك الأوراق ويبدسون سبب استخدام الكتاب لتضمينهم في كتابته لهذه الأوراق وإن وجح معظمهم أن تكون الأوراق لصاحبة اللجنة مجرد قصة للكتاب. ويقتض هذا الرأي بقية الجثث التي وجدت في القبرة نفسها وهي ترتدي ملابسها كاملة - على ما يبدو - وتشارك اللجنة الأساسية إرتداء ساعاتها وأحذيتها، وقد وجدت بعض عملات ورقية قديمة متراكمة تعود لزمان استخدام العملات النقدية في التعامل.

وحذر علماء المستقبلات من تبول صاحب الأوراق يهوب  
 والحة لجثث الأحياء من على وجه البسيطة في يوم من  
 الأيام، دون أن يجدي التقدم الطبي للقول، مثلثين على  
 تلك البسيطة بالعنوان الذي عنوان به صاحب الجثة أرواحه  
 (الرائحة قادمة) ويشاركهم هذا التوجس مجموعة من  
 المهتمين بدراسة أحوال المتقدمين وإن زالتوا هؤلاء رلياً  
 طبعاً نحن:

من المرجح أن التوى مر بهم موت جماعي فتفسخت  
 أجسادهم وبقيت أرواحهم معلقة في أجساد أحيائها المتطب  
 ولم يكتشفوا مرهم إلا حينما أبعثت رواتهم.

وزادوا:

هذه الرائحة تتكرر مع حدوث كارثة كونية لا يعلم بها أحد،  
 تتسلل أبخراتها عبر الغلاف الجوي وتقتضى على الأحياء،  
 دون أن يشعروا قبلي الرائحة دليلاً على تحليل أجسادهم.

ويرى علماء النفس أن مثل هذه الحالات يمكن أن تحدث  
 بنسبة ضئيلة لا تصل ٢٪ (عبر تاريخ الإنسانية الطويل).  
 تحدث للبشرية في حالة الإحباط الشديد حيث تشعر النفس  
 بمكابة عميقة يصاحبها شعور بالتحلل الداخلي وتلفد بهجة  
 الحياة مصحوبة بشعور طاع بأن الروح ضلت ولابد من ترك  
 الحياة بأي صورة كانت.

ونتم الآن تجهيز أحد الرواة للمعودة إلى الزمن الذي

ذكره الكلب لجميع بيانات تكشف أسباب تلك الراتحة وإن كانت هناك معارضة لإرسال شخصي بدلي. حيث يرى الأطباء أنه من الضروري استئصال صاحب الجثة وإعادة لزمته لاكتشاف الأسباب الحقيقية لهذه الراتحة. ويشجع الجمهور إتمام هذه الفكرة بنسبة 788 بتحريره يكلف الشركة الوطنية لإدارة الثروة البشرية طيارات من الراتحات حيث يرون ضرورة استئصال جميع الجثث وإعادة لزمته مع نقل مصري مباشر لا يحدث لهم هذا عودتهم لزمته.

وتخضع جثة صاحب الأوراق لتحليل الجذور الجنية لمعرفة سجله المرضي قبل الخسارة في إعادة لزمته وإن كانت تواجدهم معتلة لم يطروا عنها صراحة.

ويقول البروفيسور خالد عبدالله:

هذه الجثث هي تحد حقيقي لتطورنا الحضاري. فليس المهم كم نتكلف لاكتشاف أسباب تلك الراتحة بقدر ما نحفظه من إنجاز عظمي لإمالة المظلم عن كارثة جماعية لم تذكرها وسائل الإعلام في زمنها ولم تحاكم التسبب في إحداثها. واكتشافها لأسبابها يسعد فرصة لغائية لحاكم أولئك التسبب وتطبيق العقوبة عليهم في حالة نجاح التجارب التي تجري الآن لإعادة التوحي الأثرية.

والى الآن مازال العالم كامل البصري في زيارة للمعبر لتيادل وجهات النظر مع بعض علماء الكائنات الحية

سولي هذه القضية التي طرحت مناقشة الجمهور.

ملاحظة: لأن أوشيدا لوفى لم يحفظ كاملاً، لم نستطع العثور على الاستطلاع الذي أشارت إليه الأوراق، هذا إذا كان المقصود صحيفة وليست صحيفة أخرى وجدت في العهد الماضي بهذا الاسم أيضاً. تقول هذا لأن جريدتنا في ذلك العهد لم تكن من الجرائد المرفوعة.

100

- (١) ثم جئت هذه الأوراق تحت مسمى القصة القصيرة، وهذا على الشرح العالم  
الاصطناعي باسم القصة، ويشمل القصة أن تكون هذه الصورة متعلقة لما كان  
عليه التعرف في كدبة القصص في تلك العهد، وقد ثبت اسم من كتب لذلك  
الأوراق وحمل بطاقة شخصية تحمل اسم (عبد جبار) للحظة التي وجدت داخل  
القصص.
- (٢) كلام مطبوس لم نستطع فيه الرجعة ما يمكن أن يكون.
- (٣) يوجد كلام مطبوس لم نستطع الرجعة عليه بطريقة هذه الأوراق طريقة مقرة  
كانت ولم يشأ أحد منهم وضع كلام باطل وقبيل بعض الناس لهذه المورقات  
أن الصورة المطبوعة فيها نوعاً من قبل الحصة لتتمكن لدراسة البعثات الرجعة  
تعمل في معاد أو الأمر لا يبدو كونه رجعة ليس بها من خطر على بناء الدولة  
ولا لاسوء حال كل هذا، جعل إضافة إلى ذلك أن بعض في سجلات حصة على  
مثل هذا القدر ما يحتمل الأمر يبدو وكأنه الصديق في احتلال لكن الأمر الغير  
عدم وجود التبرير مطبوع لكل هذا ثوبت الحادي.
- (٤) ذكر اسم الشخص، لكن الاسم لم يكن واضحاً فاستبدل بالغير شائع وقال قائل  
مجهول.
- (٥) كلام مطبوس.
- (٦) علماء الاستخبار لم يشرحوه إلا سبب هذا التبرير الشديد ويبدو أنها في حاجة  
لدراسة الأوراق الاصطناعية السابقة في تلك الفترة وأسباب هذا الاحتلال الذي  
أشهر إليه الأوراق.
- (٧) كلام مطبوس.
- تصحيحه الإنكليزية من خريطة الجزيرة العذراء في الدماء السابقة الواحدة ظهوراً  
تاريخ ١٦ - ١ - ١٩٩١ م





## الذباب

ما زلت أحمل كرت التوبة وأقف أمامه بارئاً، وعيادي تركضان  
في هذا المكتب الأنيق ببلاغة وثمة قلق مخزوح يضيئ بتمدد في  
صدري وثمة خاطر يخاضني:  
- عرحنا كلنا من رحم واحدة، فلماذا هناك سادة  
وعبيد؟

أكان لا بد من أن ألق هذه الوثيقة الخزية، وثقة أشبه بالتمثيليل  
للمنوعة بيد نحات يشير السخرية من منحوتاته المشوذة. يولفتني  
تلك كتبت محلاً للقفزة، ألق مرتبكاً محترماً نصف قامتي حيناً  
ومسبلاً يدي أحياناً، أحلت مقدمة خذائي وبر السجاد الناعم متابعاً  
التعرجات التي ترسم على ذلك السجاد ذي التورم الغزير ومبعثرة  
خوطري خارج هذا المكتب.

كلنا مياه لرجة طشحة قلعت في ليل بهيم. فمن أين تأتي هذه القوة  
لتشكك مياها ولجعل منا الأمر والطبع، العزيز والقليل، السيد والعبد؟

مضى نصف ساعة على واقفي هذه من غير أن تنبس شفاهي  
بكلمة. خلال هذا الوقت الذي استغللت فيه لو أنني أستطيع  
الركض خارج هذا المكتب فلم أعد راعياً في العمل، تطلعت إلى  
هذا الكرسي الذي أحمله، هذه الورقة الصغيرة الأنيقة التي لا تحمل  
سوى جملة غامضة ومبسرة وتشي أن ثمة دابة تلتصق بها:

عزيزي أبو حمام:

حامل الكرسي إسمان عزيز، أرجو تدبير أمره

مع تحاتي

هذه الورقة الصغيرة الفاصلة تحاول دفع الدناسة عنها، بتساعده  
أرضيتها، وتهدئتها اليديع، وأحرفها المتمطية كخيوطة حرير  
تشابكت وتمزجت كأنهية اجتمعت بلحن اليهود الحزين الباعث  
على دفع الآهات والشجن المر، ورقة أنيقة تخفي خلف جمالها دم  
قاسد وائم عظيم.

هذا الكرسي لم أحصل عليه إلا بعد ركض استمر شهراً عدة بدأت  
بوعد من جارنا التي دأبت على مجالسة والدني في الضحك لناول  
أقداح القهوة ومضغ غوم العائبات من الجلازات الثلاثي فأخرون عن  
مواجهتهن في مشاركتهم تناول فوجان الصباح، وكانت والدني  
تستريح من حارنا تلك بسبب كثرة معارفها وترج لسانها غير  
متورجة عن ذكر إعجاب الرجال بقوامها الهارب من غلاله، ومدحمة  
أن عيونهم ترفّ بين نهديها الشامخين، ومفهمة أن أحداً لم يحرق

على بناء عيشه على قصبتهما حين تشيح عيشهما عياشها في محاولة إخواء صغيرة. كان لسانها السافر يفرني باستمرار نظرات خاطئة لتلك القمطين اللتين تغدوان كهضاب الزبد وكلما التحت لتناول قنجان فهولها البدوان كجنتين حستهما ربح ضيقة فنقلها بتكوير مضى.

فتصت نظراتي المورقة بين لدخال إبطها مراراً، وفي كل مرة تتركني هناك ألتصص للوصول إلى نهاية جذعها من غير أن تكثرت كثيراً بصدي. وإن كنت أفس أنها تمسحت فرصة لتشمم روائح تلك الغابة حين قد لي بشيء ما، فتدنو حتى تترك شيئاً من جسدها رهبة صدري وتسل عجبها في حركة غير رجة اليد.

كانت أسي تزدربها في أحيان كثيرة. وعندما تجددها تقف على أبواب تمسحها لساناً متزلفاً وتجلسها، حتى إذا خرجت رعتها بالظنون لشية ولا توففها إلا باستفزاز ملع وسره كل أذكاء استفزاز المجلس وتتهي أدميتها بمرائتها من تميل غيبتها. يبدو أن وفوفي كأصيدة الإنارة الحرة جعلتها تمن في التودد إلى جارنا ودعوتها في كل حين لبدال الأحاديث متزلفة إليها بحبة فاحشة، ومع هذا الإغداق لفرط تواصلي زيارات جارنا وغدت جلستها الدائمة، وفي لحظة اعتداد بنفسها وعدت والدني وعداً قاطعاً بأن تبحث لي عن عمل من خلال معارفها بعد أن اشتكت لها أسي سوء حظي وعزالي التي لا تنتهي وعشيتها أن أقيم في الشوارع، فرفعت عصيلة شعرها وهي تطرق باباً ملت من مضطها:

— أعدك أن أجد له عملاً في المغرب العاجل فقط  
استعني بعض الوقت.

فحضنتها أسي متوددة ومتعصبة تغيل فيضان حمائلها التي لا

تعجب، وغالت في تعجبها بأن أصرحت من دولابها قطعة فماني  
أقسمت أنها لم تشترها إلا لها، مبهمة أن هديتها ليس لها علاقة  
بصنيعها الذي تعزم القيام به، فمدت جارتنا يدها وتناولت قطعة  
الفماني بتأفف مطهرة وألحها بشراء الغالي من الثياب والأكورة  
مجلات الأقمشة التي يتنازع منها، ففاخت أُمي بحيلة من ليحجها  
حيال رخص تلك القطعة الفمانيّة لكن جارتنا مسحت صلتها  
بحيلة بالرة:

— الهدية ليست في قبضتها.

وأطقت أسرار وجهها من جديد:

— ما هي إلا أيام ويكون لك موهباً يشار إليه بالبنان.

فرفعت أُمي يدها للسماء تقطرها بالدعوات التي لم تكن جارتنا  
جديرة بأدائها.

وتسلست التوضيحات، وفي كل مرة كنت أنحط كرتاً من شخص  
أبي أصر حتى أصرحت كل تلك التوضيحات حصولي على هذا الكرت.

عندما تسلطت شعرت بضائقه، وكادت أقذف به وأعود لتسكع على  
أرضية المدينة، لكن حيلة صارمة انبرت من أحد الأصدقاء، جعلني  
أجلسك به بشدة.

— بواسطة هذا الكرت أنت تحصل بوظيفة أكيدة،

فذاك ثم ذاك والفرط بهذه الفرصة النادرة.

اكتشفت أهمية هذا الكرت حين كنت أعبر دهاليز دائرة  
الشرطة، فلما أن استوقفني أحد وأبرز له ذلك الكرت حتى

يسمح لي بالدخول إلى أماكن لم أكن لأحرق على الاقتراب منها، أو التفكير بالوصول إليها. وعندما وقفت أمام بابه رأيت مجموعة كبيرة من المراجعين تستعطف ذلك الرقيب العجوز لأن يسمح لهم بالدخول، لكنه كان يقف بكل صرامة أمام أي طلب واقفاً على الشروع في الحديث. كان فمه يهبط على تعب متين طويلة ويجاهد نفسه للوقوف لأداء التحية العسكرية إذا مرت بنا إحدى الرتب العالية.

عندما وقفت أمامه نحاني بيده جانباً - بالرغم من إيملاز كورت القصبة - فامتنعت لأمره وأخذت أنتظر أن يسألني مرة أخرى عن أمرى، لكنه لم يلفظ إلي فتحررت ووقفت أمامه مباشرة وحدثت كورت في وجهه - هذه المرة - وقفت بصوت واثق:  
- أحمل له هذا الكورت فأنا على موعد مع سيادته  
وأعشى أن ير الوقت المحدد من غير أن نخبره.

لم يكوث بي بل أبعدني عن وجهه بيده:  
- اسرح

شعرت أنني أفضال وأن كلماتي التي أطلقها كانت محل تقدير البعض، فرفضت صوتي بحزم محاولاً إكساب نفسي أهمية:  
- أقول لك أنا على موعد مع سيادته ألا تفهم؟

نظر في وجهي بإرهاق، وكمن يروح تعباً إضافياً ثم:  
- الكل هنا يقول إنه على موعد

وكمن يواسيني ثم:

- انتظر قليلاً، لقد منع دخول أي شخص.

كنت أراجع لولا أن امتد يداخلي المحفل من تلك العيون المبهلة  
بهيلي فتابعت على الفور:  
- سوف أحملك مسؤولية هذا التلويح.

وعندما رأى نفسي تناول الكرت ولف إلى داخل المكتبة، بينما  
كنت أسترق النظر لتلك الوجوه التي ترمقني بمشاعر مختلفة،  
فهيتي لا تعجز الثقة بأعيني، لسعني خاطر ملبت:  
- هذه الوجوه تأتي من دهايز الصلابة.

ربما تابعت إلى ذهنهم صورة جارنا التي تفتتح مثبته وهي تقسم  
أن جسدها الهارب من أفلاكه يتعطف النياب، وأن ضحكاتها تفتح  
الأبواب الموصدة، وأن محاولته الإغواء الصغيرة التي تقوم بها تجعل  
وعودها ملابيح ذهبية، وكلما حاولت إبعادها عن مخيلتي طمحت  
تلتقي بملايسها التي تخلصت عن قورها حبال جسد يرافقه ويغور  
برغبة متأحجة تهدمت بحوار زوج عشق الإنسار في الموائع البعيدة  
..ربما كان الكرت يحمل رائحة الدناسة تلك...!!

عاد الرقيب ماداً الكرت ليدي وممسحاً المجال أمامي للدخول  
ومانعاً بيده الأخرى مجموعة حاولت التسلل وسرافقتي  
...لفحني هواء الكيف البارد وشعرت أنني أتحق معلقاً، فقد  
كان المكتبة واسعاً وثمة شخص يجلس خلف مكتب أثيق،  
فتوجهت عموداً بالإنعاده، ومددت يدي بالكرت الذي أحمله  
فصعدت عنه حركة لم أع تفهم دعوة للمجلوس أو الانشطار  
فولفت متحسباً، وكلما حاولت أن أتحدث أراجع أمام انهماكه

ولا ميلاته. كان يجلس خلف مكتبه - بحسبه القارح وعلامح وجهه العتيقة القاسية - متكياً على الكتاية وثمة ثأفت يطفح من خلال تجاعيده المشمرة عن عوسها. التعلست النظر لرتبه العلقه على كتفه وكلما حاولت أن أذكر تسلسل الرتب العسكرية، أعجز ولا أقدر أن أحدد في أي سلم من سلالم العسكرية يقع الناج والنعص. كانت أعلى رتبة عسكرية عرفتها رتبة ملازم حينما تنقل أهل الحي أن إسماعيل ولد السقا أصبح ضابطاً في الأمن العام وكف الناس عن تعبيره بلقب (الرفعة) وأصبح محل حفاوة الجميع، وكنت أنني نفسي بأن يحتفل بي أبناء الحارة أسوة بإسماعيل الذي كان يشاركني اللعب والبلادة.

عندما صرحت لأحد الأصدقاء بهذه الأمنية ضحك في وجهي كثيراً وأردف:

- إذا عملت بالعسكرية فستكون جندياً بمسرحاً لا تحصل على كفتك إلا الأولم.

لكني لم أدب في عادي وتغيطه عجز:

- سترى عندما أعود وأنا حامل لجنيتين كما حملتهما إسماعيل وربما أجد أكثر منها.

ضحك حتى انفلأت عيناه بالدموع:

- يا هم لجنيتين..

أعسست بحرفة على نفسي من تلك الصخرة لمطاولت بعادي:

- سترى..

تابع سفره:

- صحيح، فأنت لك يقضون كل الليل ساعرين والحرف  
أن تعود لنا وأنت تحمل غيوم النساء مجتمعة..

وتركي وهو يلعب العاء الأحرف والكتابة التي فطنت بأشكال في  
طريقه.

يبدو أن سحر هذا الكرت توقف، فبعد أن يمر أي مقابلة صاحبه  
كف عن العمل، ها أنا ألق كأحد أعضاء هذا المكتب لا أفرق  
على الخلف أو الكلام هذا الصمت الهيب جعلني أحرك عيني  
بحثاً عن أي شيء أجلس به وأقبل هذه الدقائق التي تطحنني. في  
المكتب ناقلتان إحداهما عربية والأخرى شمالية تقطعهما سائر من  
السيارات استرجعت ألوانها بأرضية سوداء وتداخلت التعطي أشكالاً  
هندسية عملاقة، وفرشت أرضية المكتب بـ(موكيت) مكري ذي وبر  
غزير بينما استقر المكتب في صدارة الغرفة مبتدأ بمساحة ثلاثة أمتار،  
لونه النحري اللامع يشي بلحمه الباهظ وقد استقرت عليه ملفات  
ومقلمة ودياسة وصورة لقطتين تتفاقر من عندهما شقاوة محبة.

في انشغالي عشت أن يحدث بي فجأة أو يحدث معي، فركبت  
كل شيء وتركت أي لغة منه، كان لا يزال منهيكاً في الكتابة وقد  
طرات عليه (نرفزة) مفاجئة فبهش يده صرخة وهوها. كانت لغة  
ذباب زرقاء كبيرة قد استقرت على المكتب وحسكت برجلها  
مؤخرتها وخرزت برزخها للأسفل وعادوت التحديق واستقرت على  
خشمه، وجتهد، شارب، شفيه الشخصيتين، كانت تحط على أي  
جزء من وجهه وتظهر من ثنائي حركة تصدر من يده وتستقر على  
المكتب ثم تعود التحديق والهبوط على برحة وجهه الواسع بحفة



وسرعة خاطفة. المكان الوحيد الذي كانت تستقر فيه للحظات وتنعيم يقليل من الراحة كان بين شقبة الشرحطين المزججين فلهبط ولقد بورها وتغمره في الشقة السفلى حتى ترتوي وتستند إلى قوائمها الخلفية في فترة سريعة مرتجلة لتعاود التحليل مرة أخرى، ازدادت حركة يديه وفاز وجهه بالفضيق، تلافت عينتا فرمقي بازجراه. كنت متحيراً فصدت له الكرت الذي أحمله، لم يمد يده واكتفى باستلام نظرة سريعة ومباغلة للكرت الذي أحمله، وعاد للمكتابه. وعدت أصدق في ذلك الكتب الواسع وأقنني لو أنني أستطيع أن أتحرر لأهرب من هذا المؤلف. كنت أفكر حديثاً في ترك مكتبه وكلما عصمت بذلك تداعت إلى مخيلتي صورة أمي التي ستصفني بالذئع السموت لو أخبرتها بنكوصي، وسأذكرني بكل ما صنعه أمي معها، وقد تنسأ في ذلك وتعتني به (ذيل الكلب). قد ضقت ذرعاً بها وجذعها وتذكيري الدائم بما جناه أمي على حياتها وما عطفه لها من حرائق لم تطفئها عظام أمي الرميم كانت تقول دائماً:

- لم يرض أن يذهب للأخرة من غير أن يترك له صورة لتذكركي بعذابي معه.

وسرعان ما تقوى ذكرياتها القديمة فتلعن اليوم الذي جمعها برجل لم يكن يعرف في الدنيا من شيء سوى الأرقاء على السرور والشيخوخة في كل الأوقات، وقد تفلطني بأي شيء في يدها صابغة ببط:

- بلعن أو هذا البط الذي حمل بذلتك.

ما زالت تحف أمامه متحشياً متسباً لو أنني أستطيع الهرب، ولودت نفسي بذلك مراراً بعد أن طمأنت خواطري المهيبة من غطبة أمي بتدبير حكاية محكمة الإثنان تقصها بعدم جدية من ذهبت إليه ولذا

لم تصدقني فلتقتل ما تقول، أريد فقط أن أهرب من هذا الدل  
لقبت.

أعدني أقت أناامه كالأبله ومن غير عمل شيء سوى التحدث به  
والاستماع باحفظار تلك الذبابة لأخته والأخصاص لي باروتها من  
حرف شفبه للتخاصمتين رأيتها تلف عند حذر أسنانه كبهيمة  
ترنوي من نهر ديل رجلاها مستدتان إلى جذور أسنانه المخضرة  
وفمها غارق في ريقه الذي ارتفع منسوبه وكاد يفلح للأعلى  
بغير اكترات من صاحبه، كان مهتماً بتسويد تلك الورقة التي أنامه  
بكتلمات غامقة وشيقة الحروف، كان كل شيء في وجهه صلباً  
قاسياً باستثناء ذلك النهر الذي جرى بين شفبه الشباعدتين .. وهو -  
الآن - أنه لا يستطيع تكلمة الكتابة فكلمة استقرت ريشة القلم على  
الورقة رفع يده هاشأ تلك الذبابة الزرقاء التي أصررت على مضايقته  
ومواصلتها عندها التحطيم صغور وجهه قداف بالقلم جانباً واستدار  
بجذبه الأعلى خلف كرميه ضابطاً على مفتاح حرس استجاب له  
حارس المكتب بسرعة عجيبة .. ليظهر ذلك الرقيب المحوز بقامته  
الصحبة والتي حاضد كثيراً لاسنوتها وأنفية النحية العسكرية حيث  
خطا خطوات سريعة لا تناسب مع عمره الكبير وألقى بالنحية  
بانفضاط بنفسه النشاط والخبوية، وقبل أن يستدل يده من أعلى  
جهته كان الصراج يلاً فضاء المكتب:

- ألم أقل لك .. لا تسمح لأحد بالدخول!

تلطم الرقيب ويلهجة مبحرة اضلو:

- قلت لك إنه مبعوث من عند (أبو وجل) وأنت  
أعبرتني أن أسمح له بالدخول حين استدأنتك  
بذلك.

واطلع رقبه بصعوبة وأكمل:

- صحبح أنك لم تشكلم ولكني فهمت من إشارتك أنك موافق.

دمعي بنصف الشفافة وكأنه نبيه لروحودي.. كانت الشفافة أقرب إلى الاحترار من الترحيب وصاح بالرقب:  
- هناك من أروعني ولم يكتفي من استكمال كتابة تقرير في غاية الأهمية.

تطلع إلى الرقب معاناً، فصحبت عيني على الساعهما وحاولت إبعاده أنني حافظت على تخشي منذ دعولي إلى هذه اللحظة، كان ينظر إلي بإجهااد ولا يعرف ماذا يصنع، وأخرجته من تردده تلك الصبغة العيفة التي صدرت من مبداه:

- ها قم بمسلك.
- ...!!
- تخشني من هذا الإزعاج فأنا غير قادر على العمل.

تحرك الرقب بانغماسي وأمسك بيدي في محاولة لإعراجي، فازداد تهيجه:

- ليس هذا!!
- ليس هناك من أحد سواه يا سيدي.
- بل هناك.

وكثر على ألسانه:

- أنت مهمل لا ترى إلا القريب من عينيك الثقلين  
أكلهما الزمن.

ارتبك الرقيب كثيراً، وجمجمة أقرب إلى الرجاء تساقط:  
- ومن هو ذاك يا سيدي؟

كان لا يزال حالماً حلف مكتبه وصوته يتصاير من بين شفطيه  
المختصمين:

- أنت لم تعد تصلح إلا لعد ما تبقى لك من أيام .. لا  
أعرف كيف بقيت ممسكاً بوظيفتك إلى الآن؟

كان الرقيب زافع الصر ينفث تلك الكلمات البارزة ولا يعرف ماذا  
يقول، أعاد محاولة الاسترضاء:

- سيدي، إنني أقوم بما تأمر به على أحسن وجه.. من  
ذا الذي ضايقك وسأخرجه في الحال.

صاح به حاتفاً:

- ها أنت تضيع وقتي بأستك السبعة.

وأردف متصلاً حتى أن لعابه تقار على سطح المكتب:  
- لا أريد إضاعة الوقت أكثر مما مضى.

وحين لمح أن حارس مكتبه ما زال شارداً حائراً صاح:  
- اقرب لا حول لك عصرأ.

وأشار بغضب صوب تلك الذبابة الزرقاء التي استقرت على الشلمية،  
فتمرك الرقيب صوب تلك الإشارة وأخذ يتطلع، والتم:

- والله لقد كنت بتنظيف كل بقعة في المكتب أكثر  
من ثلاث مرات كي لا أفضيك.

صاح بالفعال مبالغ فيه:

- أنا لا أتحدث عن ثقافة الكتب يا غي ..

- !!!!!

- ...بل عن هذه الذبابة التي لم أجمعني أكمل مهمتي..

- !!!!!

- فكيف سمحت لها بالدخول؟ عليك بإخراجها الآن!!

تسعت حذقة الرقيب وردت من دون قصد:

- ذبابة.

- أو ربما حساناً يا غي؟ نعم ذبابة.

- ولكن..

- لا أريد كلاماً زائداً. ألا تعمل هنا حارساً وتقتاضي راتباً

..ها قم بعملك وأخرجها.

تحرك الرقيب بسرعة صوب الباب، فصاح به:

- إلى أين أنها الأبله؟

- سأحضر لفطمت.

صاح الضابط بغضب: كمن يهم بتعريف ملائمة:

- ألا تعلم أن الطييدات تسبب لي حساسية وتستعيق

نفسي لشهر كامل؟

رد الرقيب من غير شعور:

- نعم، نعم تسبب لك حساسية.

وخلف شاورداً، ليصبح به:

- ها أخرجها بالهش أو بأي طريقة كانت.

وبهمة بدأ الرقيب على الذبابة التي أخذت تنقل من مكان لآخر،  
والرقيب يتبعها أينما توجهت، وقد حلق (الزبد) وأخذ يطبق عليها  
الحقاق في زوايا الكتب فتمنعه قليلاً من الفرج وتعاود التحديق في  
الأماكن الواسعة والتي يصعب فيها ملاحقتها، أو تنجح مباشرة إلى  
وجه سيده فلا يقدر على شيء سوى انتظار أن تغادر ذلك النهر  
الجاري إلى مكان آخر. لم يكن قادراً على التركيز فحين يتابع  
تحليقها يسمع أمراً وبعض الشكائم المداخلة تغير من اتجاهه وكلما دنا  
منها خيره أمر أو شبهة ففابع هشها بعشوائية، فجأة وجدت نفسي  
أشاركه متابعة تلك الذبابة الزرقاء وهشها فكانت تنقل بخفة  
وسرعة. صاح بنا محقراً:

- يا أغبياء افتحوا الباب وهشوها باتجاهه.

صاح الرقيب:

- نعم هذا هو الرأي الصائب.

وجدت أن هذه الشبهة قد أدخلني في دائرة اعتناقه فقد سمعت  
لني توصيني في إحدى المرات:  
- إذا سيك الكبير فهذا بداية الخير الكبير.

فذهوت الله أن يمكن من شيمتي مرة أخرى!!

انقرت منه ملاحظاً:

- سيدي هل نريدنا أن نمسكها حين لم نكن لا نرى  
ماتحاً من سحقها؟

تطلع علي في دهشة وسالت شقيقه كمظر منهجر:  
- قبلك الله... يا ولد.

لا أعرف بالتحديد بقية تلك الشائعات فقد تعاقبت في إظهار الحرم  
على إخراج تلك الذبابة عامساً في أعناقنا:  
- (يا ولد شد حبلك) ربما تكسب بعض رضا.

فانصرفت لوجه الرقيب الذي كان يتحرك بصعوبة وقد بدأ الإعياء  
يجري في مفاصله، وثمة لفتحات يهيمس بها في داخله يحلو،  
لأجد نفسي أصبح به:  
- تعال من هنا.

وأخذنا نهش.. الذبابة وأثناء النهش كانت نراولحنا من أجل  
الوقوف على شقيقه فوقفنا حائلاً بينها وبين مرادها في محاولة  
مستمرة لمنعها من إعادة هبوطها المستمر على وجهه حتى إذا  
ضيق عليها الرقيب الحاقق وأصبحت على مقربة من الباب  
أسرعت على عجل بفتح الباب الذي وقف خلفه مجموعة  
كبيرة من المراجعين والذين رأوا الغضب يتظاهر من وجه الضابط  
بينما رأونا نهش تلك الذبابة التي استطاعت التخلص من الزاوية  
التي حشرها بها الرقيب فعدلت للشحليق في أرض المكسب،  
وقفوا للمحطات متأملين حركاتنا مبدئين دهشة لتلك الثغرات  
للذئابة، ونحن فاض الغضب صاح الضابط صيحة أحسست أنها  
شلفت سلف حبره:  
- قلت.. أخرجوها.

صحت بالتجمهرين:

— ألا تسمعون؟ ساعدونا في إخراج هذه اللبابة  
اللعينة!!

انبرى أحد المراجعين لمساعدتنا بعد أن قذف بقلبه جانباً، فاكشفت  
فداحة ما قلت حين وجدت أن جميع المراجعين تدافعوا لمراحمي  
في مثل تلك اللبابة الزرقاء!!



## الماء يسير باتجاه واحد

أخبار الذي سعد إلى السماء:

- نزيل عمارة الشرقي يختفي ولا يترك خلفه سوى أساطير غامضة
- المحرر يقف في مكان الخطي ويكشف الكارثة.

كتب - يوسف الغالب

ليس هناك إلا راحة وعوا دنية نفوس السكان ببلاده وتلك... الغرفة تبدو معجزة بعد أن أميدت مآثرها، وتوحيث بداعلمها فوضى مضطربة فلم يبق ثباتاً إلا تلك اللوحة الزخية المعينة وذلك الرنين المتواصل.

كانت (هيفة) غامرة نوحك أن تنطق على تلك اللوحة التي مكب فيها عيبه وزفراته.. رنين الهاتف ينزعه من تأمله - بالحاج - فيتحرك ببطء شديد، ويرفع سماعة الهاتف، وينصت بوجه حامد كجدار

قدم، فجأة تهاوى وغلى صامتاً بينما عيناه تظفان دفعا غزيراً أخذ  
 يكفكفه يده، مغلباً شهجاً انحطع بعصره حاول جاعداً إحصاءه،  
 فاقصره وكلما أغمى في ذلك تهاوى حتى أصبح كخلع متفهم..  
 تلم بصوت متفاجئ:  
 - لم أجد صالحاً لشيء سوى الموت!!

خرجت كلماته باردة واحدة، وكأن الموت بدأ يعمو في مفصله، ولم  
 يرد على حملته تلك شيئاً، فقد أزعج سحابة الهاتف في حين كان  
 ثمة صوت نسائي يتر من الطرف الآخر.

عادت الغرفة تسبح في سكونها، فأسلم حسده لأحد الكرسي،  
 وتناول سيجارته، واجترأ نفساً عميقاً، وترك عينه تتابعان زوينة  
 الدخان المبهقة من فيه بكثافة.

كل شيء فيه يبدو متناكلاً عيناه تطفحان بالغمس، وأجفانه  
 المشككة لشاحرت في عراك محموم. شفاه فائقدان سوادوان  
 تغرشف على طرفيهما زبد مبيض.. شعره طليد محروق كغايا لوب  
 بال أكلته أشعة شمس عمودية، وسحته باعته شاحبة غادرها الدم  
 ولم يبق لها سوى زرققة نذ كرك بالجلث سيلة الضخيم لا شيء  
 يتحرك فيه سوى نفس يضيء يداعل، ويخرج برتابة الليل الموحش.  
 تحرك كعمود هرم واستلقى على سريره الرث كجثة يسير فيها  
 الخطب بخطى حثيثة. أسد رأسه إلى وسادته وأشعل سيجارة أخرى  
 وعلق بعصره في لوحة تدلث إلى جانب الجدار.. تلك اللوحة التي  
 تمثل سفينة موهلة في الإبحار وعلى متنها استقر راكب واحد له  
 ملامح غائمة وبشور بيده البهني بالجد موهلة نافرة لتفاوت إلى  
 مقدمة اللوحة متخفة هيفة وحش أنشوي بينما كان لون السماء

داكناً محطط بحمرة مثددة، وفي غطاء الكوحة كان ثمة طائر ضخم ضم جناحيه للأسفل فيما حائراً بين التحلين والهبوط، وفي أسفل الكوحة انقطع الماء بفرارة.

هذه التروحة تستأثر به طبعني معظم الوقت أمامها متخفياً صامتاً خائشاً لا يرح مكانه حتى تغور عيناه فيبطني وجهه بكثنا يديه ويركض صوب سريره الرث يجر الدخان والظواهرات.

في خارج هذه الغرفة الرخوة الرطبة كانت السماء تنها لأن تنكب ماء صغراً حيث بدت بروق صغيرة تلمع في الأفق وتشد أنسها في السعد حتى إذا نهأت الرعود من عليها، استجابت لنذاتها بخصرات حثيئة مكنتها من الوقوف على رأس المدينة وقرعتها برعد تصدعت له الأرض.

على صوت الرعد الضارب انزلت عيناه من على تلك اللوحة وحفظنا بفرع، وتموجت بحسده ارتعاشة قوية، فلدثر بغطائه الشوكي وقطم عروقه بحزج مستحسماً أخامه اللاهنة في محاولة لكبح هذا الفرع الطارئ، بينما كان يحاول ابتلاع ريقه الناشف بصعوبة. ظل على هذا الوضع للمحطات، حتى إذا أفرغ الرعد حمولته وبرقت غرفته بوميض عاصف ليرق تشظي على مفرق المدينة، عاد إليه هدوءه قليلاً فأشعل سيجارة أخرى ومد نفسه ناعماً الدخان باتجاه تلك السمة المبللة برداً المطر والرحمة القادمة من نافذة الطقة على الشارع.

كان رنين الهاتف المتواصل لا يزال يفرع لثابه، ومن بين ارتعاشاته وعوفه نهض يتأهلي متلهفاً بغطائه الشوكي واتجه صوب النافذة،

وقد يتشكل صلي يتصلع الشوارع والرياح الباردة تلتفح وجهه فزيداد انكمشاً. ظهر الشارع فقيراً من لثارة.. قفلة من الرحال لقاطروا فرادى وحرروا عظامهم بلباسهم الصوفية مادين خطاهم على جعل لثامهم الأثرة الملباة في جنبات الشارع الممتد.

رذاذ خفيف يتطهر على زجاج النافذة فيمد يده صوب تلك القطرات، يلمس سيجارته فيها فتشتغل السماء عن تقارب واسعة تسبح ماؤها بخرارة ارتفع صدره عالياً وأعشى باليكاد.

~

إلى هنا والأحداث مقطرة والزمن مفتوح..

~

الشارع بحيرة صغيرة يقطعها لثارة بسرعة ومحنة غريبة. كان يسير خلف السمسار يحمل حقيبته والجهمة تاركاً خيطاً يطفح من بين تلك اللامع الشبة ويصبح بالحبال بأنف: - إياك أن يسقط أي شيء مما تحمل.

كان السمسار يسير أمامه متودداً ومتسحاً له الطريق في دهليز معتم ينتهي باب يني عليه العسكوت حاول جاهداً أن يشغله عنه، وأدار لفتاح فهدى الباب بصرو مزيج ليكشف عن سبب استقرت على جنباته فتحات الحمام ومطبخ ومسالمة صغيرة وانتهى بغرفة اتبعث منها رائحة راحة دافئة مقروزة كأن ساكنيها غافروها من أمد طويل تناثرت أغصان السحائر وملايات الأسرة في أرضيتها..

والرجة لسفينة غارقة لم يتبل على منها سوى حمود محترق على هيئة شخص يشبه للأمام وساء صفية إلا من حائر غريب سقط أسفل قائدة امرأة اتصبت في مقدمة القوّة ويدها منحصر صدق.

وكان ثمة صمم النصف بفضاء شو كي - يحاور النافذة المظلمة للشارع الخارجي - تحت بشكل رائع للشخص كأن أثرت اقتلته لثقت ظلت عباءة مظلمة وهاربة بضوئها صوب البعد وبده مرفوعة وكأنها تحاول دفع كارتة أبلت مباحة.

كان السدأحر ينظر إلى محتويات الغرفة بازدياد وانسامة المصمصار المترجعة تشجعه وأساته يسيل:  
- تأكد أن قبلاً من الترتيب سيجلبها إلى نقطة تظاهر بها زملائك.

ويضحك رد عليه:

- آنت متأكد أنها تصلح للسكن؟!



في إحدى الصفحات الداخلية المهمة والتي يحكي فيها السنون ذكريات تليق من حناجرهم المكلفة بأهات وحسرات تحضر قرأت ما رواه أحد أولئك المسنين أن في حبيهم عمارة لا تصل إليها الشمس وتظلها سحابة على مدار العام، وكنت أبحث عن تحقيق صحافي أكسب به رضى مدير التحرير الذي طالما نعتني بأنني لا أصلح لشيء سوى فكرة الأخبار السهلة التي تبثها الوكالات أو التي تصل عبر الهاتف.

عندما قرأت تلك المقابلة والتي ابهر فيها المهرور تلك الحكاية في جملة مقتطفة (البعث أسطورة من داخل عمارة مهجورة) حدثني نفسي أنني قائم على إنجاز سبق صحفي، وبعد اتصالات عديدة تعرفت إلى تلك العمارة وتوجهت مباشرة لإجراء هذا الاستطلاع.

لا أحد يعرف مصير غزير الغور الأرضي من عمارة الشرقي وإن ظلت هناك كثير من الأقاويل وأخبار يتناقلها الناس عن ذلك الغزير بشيء من القداسة، ولقد هم من يسخرون من حكاياته، ومهما يكن الأمر فإن معظم تلك الأقاويل كان يكتنفها غموض كثيف وليس من اليسر كشف الحجب التي تسري بها.

يقولون:

— صعد إلى السماء!!

هذا هو التفسير الجاهل لحادثة لم تستوعبها الذاكرة الشعبية لأبناء تلك الحارة المغروسة في مؤخرة المدينة والتي تكتظ بمدات الأساطير والطلاسم، وتغدو الأساطير ذات إجراء لا يقاوم خصوصاً أنها تحمل لثراً من عالم سافر ومضني إلى عالم اللامعقول، عالم الحلم، عالم تتحقق فيه كل المستحيلات. فالحياة أسطورة مقفولة ومن نظر إليها بهذه الصورة اكتشف كل الأسرار الخفية وأغلب الظن أن هذه الحادثة كانت بمثابة الخنجر الذي يتسلل في الأوردة ليترك ضحايا مفذولين بين الحلم واليقظة.

لم أكن لأصدق تلك الحكايات التي انتشرت على مسامعي أثناء إجراء هذا الاستطلاع وإنما كانت تلزعجني أفكار شيء:  
— لماذا تلغي الذاكرة الشعبية المطلق ونقاء الأسطورة؟

ولذا يتم فصل الواقع عن ظروفه في السجلات  
المختلفة؟

وبدلت إلى ذهني الروايات التاريخية وما تعبقه على أبطالها من  
قوى أسطورية تنقذها ما لدينا من منطق معرفي، وقبل سؤال  
بحرني:

- ما مدى استخلاص الحقائق من كل هذا الكم الهائل  
من الحكايات؟

هذا الاستطلاع يهدف في الأساس إلى الاقتراب من تلك الأسطورة  
التي نمت وتماثلها الأسس بصور مختلفة ومتباينة.

ولكني لا أقامر في تحقيق فاسد فكرت في أن أنظر تلك الشقة،  
ولأنني أعاف كثيراً فقد تمت باستجواز شخص يظن تلك الشقة  
ويحدثني عن تجربته. لكن ذلك الشخص غاب ولم أراه بتأ. وبما  
كان أحد ضحايا تلك الأسطورة التي تؤكد ما فعل الحارة، وفجأها  
(لا يدخل أحد تلك الشقة ويعود).

في البدء قابل مدير التحرير حمادي بسخرية - وليس صحيح لي  
أستاذي محمد عاتش بسرد هذا على القراء - فحين مددت إليه  
ورقة أطلب فيها مصوراً، فتح فيه لتظهر أسماء الشقة ذات الحريق  
الذي طأنا معنى حجلي من الحديق بها، وحش بطريقة مسرحية:

- ولتبرأ تحركت! ماذا تريد أن تقدم؟
- موضوعاً لن أوح به.
- كل ما أعشه تعبق فكري عنك.
- سترى موضوعاً يستحق أن يظهر إمكاناتي الصحفية.

- أكنى ذلك.

والحقيقة كان رؤوفاً بي وحظرتي كثيراً ولا يتنازع لأحد من القراء أن هذا مدح فأستلانا لا يكره شيئاً ككرمه للمدح.

خرجت والحسنة تشتعل في أطرافني، كان علي أن أبحث عمن يرشدني إلى مدخل تلك العسارة التي التفت حول نفسها كامرأة أصابها الحري فلم تجد سوى ذراعها تستتر بهما من العيون الشيفة المحذقة بها. كان دورانا - أنا والنصور - حول تلك العسارة مشار التربة من قبل أهل الحري، ولم أجد بداً من مفاجئة النصور بإخراج كاميرته من حقيبتها، وكما توقع استشاطت الكاميرا أن تجذب الكثير صوبنا وجعلت العصابة يستعزون من علي بعد بفضول متوحش، وكنت كلما التفت نحوهم وجدت أعدادهم تزايد، وإشاراتهم التي يهتفونها تقفز كبار السن على التحديق في وجهنا وقد استعالت في أنظارهم إلى أناس غربيي الأطوار، وكلما هممت بمحادثة أحدهم تراجعوا وتعاظروا هارين ليلتهم تلك الأزفة القوية.

دونا - أنا والنصور - حول العسارة مراراً وفي كل مرة نعجز عن تحديد المدخل، كان منظرنا لأهل الحري الذين اكتفوا بالتحديق، وإن كنت أفس بهمساتهم ونظراتهم التربة لتخرق سمعتي من الخلف.

في المرة الأخيرة دفعوا شاة نحونا يظهر من عينه أنه السليم الذي يلمعونه في مثل هذه الحالات. اقترب منا بحذر وباندنا بسؤال مرابط:

- هل باستطاعتني أن أقدم لكما يد العون؟؟



فوجدتها فرصة سانحة لأن أتودد إليه:

- مرحباً.. هل أنت من أبناء هذا الحي؟

الفتى إلى من كان يرافقه، وعز رأسه بالإيجاب، فافترقت منه وأطلقت إهتصاصي.

- نحن صحافيان.

لمت عينا، وبدون شعور امتدت يده إلى غيترتي لإصلاحها، وازداد ارتباكك فقال متلعثماً:

- نكفون بالخرابذة!!

هرزت له رأسي مردفاً:

- ونحن بحاجة إلى العون في استكمال استطلاعاتنا.

- حاربتنا بنقصها الشيء الكثير ومن في حاجة إلى مثل

هذا الاستطلاع.. هل تودان أن تصورا الجارات الضائعة

أم أسلاك الكهرباء العارية، أم أكوام القمامة أم...؟

وقبل أن يكمل مرد شكواه، تدخلت معه:

- لا، لا. استطلاعاتنا تنحصر في موضوع آخر.

- أي موضوع؟

- تزيل الدور الأرضي من عمارة الشرفي.

ارتبك قليلاً وأعلن النظر للحلف ثم أردف:

- سأساعدكما بشرط أن أرى صورتي بالخرابذة.

فاوغزت للمصور بأن يأخذ له صورة، وعندما رأى وميض الم فلاش

صاح بمن يرقبونه:

- إنها صحافيان وليس كما ظننكم.

فانطلق صوبنا مجموعة من الرجال والنساء بينما وقف علينا رجل  
ممن يصدق فيها بالحقار ويتحدث بالتمعاض من الصف حولنا:

- لم يوجد الله أكذب من هؤلاء الصحافيين يكتبون  
الباطل حقاً!

فلم يلتفت إلي أحد حيث كان المجتمعون يترقبون في أي اتجاه  
يذهبون وبعض الفلاحين يذهبونه كقطع تركض خلف حبل متحرك.  
وما أن بدأنا بسرد أسفنا حتى انفتحت شهية كل منهم للحديث،  
وكان أول المتحدثين بواب العمارة (رجل يميل إلى البدانة قصير  
دقيق اللامع).

فيما حديثه مضحكاً بعض الشيء، تضح وسمح زيد شدقه بالإبهام  
والسبابة:

- يقرأون إنه يملك حمام سليمان!

بهذه الحملة الغنائية بدأ حارس العمارة حديثه، فشجعته على  
الضي في سرد ما سمع فقال:

- لقد مضى علي زمن طويل وأنا أعرض هذه العمارة،  
وقد سمعت العجب من ماكن الدور الأول، وقد تامل  
حراس العمارة حكايات كثيرة عن هذا التريل إلا أن  
أحدًا لم يحزم بما سمع وإن جاءت معظم الروايات تلاً  
عن الحارس الذي عاصره إذ روى:

- لم أر في حياتي رجلاً أقرب منه، فلم يكن ينادي منزله إلا لصداً، وغالباً ما يقف خلف الشفاطة محسباً يستأجرها الشفاطة فيبدو من الخارج كشفاطة الملاهي. ولم أكن لأخبراً على طرق شفته، فبعد أن فعلت ذلك في إحدى المرات أقسمت أن لا أعيد الكرة مهما حدث. كنت مكثفاً من قبل صاحب العمارة بجمع الإبحار الشهري من سكان العمارة وكان الجميع ينادي يدفع الإبحار قبل أن تطرق عليهم الباب إلا تزييل الدور الأول، فقد كنت أفاخ به في أوقات النوم يقف على رأسي نادياً رزمة من الأوراق النقدية تفوق سداد الإبحار ولا يلتفت لملاحظتي عن تلك الزبالة، وفي أحيان أسعد كالهمس يقول:

- ما تبقى حلال لك.

كنت دائماً ألّف في منطقة متراجعة من الوحي فلا أعرف هل أنا في حشم أم في واقع؟ وفي أواخر أحد الأشهر نباحاً عن السداد فنادته بطرق بابي، ظننت أطرق الباب لوقت طويل، وعندما لمست وحممت بالعودة سمعت صوتاً قليلاً يأمرني بالدخول فدفت الباب ودخلت، كنت أسمع الصوت من غير أن أرى محدثي، وغباءاً رأيت أوراقي ماثلة تتحرك في الهواء فوظفت متحشياً ولم أتر إلا وبعد تحسّر بداعل حبي وتضع النفود وبفس نرا ذلك الصوت الثقيل سمعت:

- إياك أن تسألني عن شيء قبل الأوان!!

وأحسست يد تلطفي للمعارج. وحذ ذلك العهد وهذه الشفة كما هي عليه.

صمت الخارص صمتاً ثقيلًا، ثم وكمن يتنزع نفسه من عالم مليء بالأغلال، تابع:

- ..... الآن لا أحد يسكنها وكلما نزل بها أحد غادرها قبل أن يكمل يومه الثالث.

يقولون إن هذه الشقة مسكونة وإن الذي يسكنها ملك الجان بعينه!

وفي مكان آخر من الحي حدثنا يوسف مبارك - غار يقطن قووه هذا الحي من عهد الأشراف وقد نحت وجهه نحتاً كتابية قديمة حافظت على تماماتها رغم ركض السنوات الطوال - قال:

- في الحقيقة نزل هذا الثور رجل مبارك وقد سمعت أبي يروي عن جده أنه سمع أمياً يقولون:  
لقد صعد إلى السماء!!

حيث يروى أن ذلك النزيل بينما كان يحاول إغلاق نوافذه بيده خوفاً من تلك الصواعق التي ضربت المدينة شوهه بخرج في ذلك الجو الماطر لملء رداءه بحبات البرد فطُرقت السماء بهدافة متويزة انفلقت عن طائر غريب له لون الشهب الخاطفة حط عليه وأنشبت مخالبه بجلده، وانفق بجراحه غالياً حتى غاب بين السحب.

وتحدث إبراهيم البار - تقطن أسرته بهذا الحي منذ عام ١٣٧١ للهجرة - قال: سمعت جدي لأبي في طفولتي يقول:  
لقد حصلت به الأرض!!

وروى أنه ظل طوال حياته عاجلاً عن السماء وظن كثيرون أنه عاجز

لا يقدر على إشباع شبق نساء هذا الزمن، وظل هذا الاعتقاد سائداً بين رجال الخي حتى أن أحدهم إذا رأى زوجته تجالسها ويمسك معه لم تبك له مياه الغيرة، وكان مولعاً بتربية الإناث من الحمبر فكانت له زريبة لتجاور حوش الدبني من جهة الغرب اتخذها إسطلاً ليربي بها تلك الإناث، وفي ذات يوم أقسم أحد الرجال الثقاة أنه رأى بأني إناث الحمبر بشبل! فتم بعدده أحد فجمعهم ومار بهم إلى الحوش، وظلوا يترقبون به حتى أتى إحداها كما بأني الرجل أثناء فرغ أحدهم يده داعياً عليه، وما هي إلا لحظات حتى طارت الأرض وأصرحت زوابعها وكاتبوا بالمسحونة وهو يدور بوسط تلك الزوابع حتى غارت به الأرض. والآنral فجوة كبيرة بوسط ذلك الحوش الذي يحسف فيه.

وقد وقفنا على تلك الفجوة والتقطنا صوراً لها وبطلق عليها (سبر العذاب)، وقد رجعت لكتاب التاريخ ووثائق البلدية فلم أعر لها على ذكر، وربما ما ذكره إبراهيم أيار دخل إلى ذاكرته من خلال التاريخ الشفوي الذي تفضل به الجماعات الهامشية بحيث تصنع لها تاريخاً موازاً للتاريخ الرسمي، ومشكلة هذا التاريخ أنه ينتهي بعد زمن قصير لأسباب عديدة قد يكون أهمها وفاة أصحاب ذلك التاريخ أو رواته، فهو تاريخ مدون في الصدور وإن ظل باقياً فيتم تناقله برواثة عديدة لتعدد تعدد رواته وانتقل من كونها تاريخاً إلى كونها حكايات تسرد القزحية المولعة، ويتم ذلك في ظل غياب توليق التاريخ الشفوي.

وروى منصور الترخمي عن أبيه:

- لقد خلق في السماء كضار بري.

وقال رجل ولفظ ذكر اسمه:

- لقد اعتصمته الجن.

بينما روى أحد كبار السن أن الرجل أحرق بالكهرباء لأنه حاول أن يظل من أحد الشخصيات المهمة.

وقال أحد أولئك الصالحين الليل وبدهي صالح الزروع - كان يعمل بالعسر، وبعد تقاعده لم يجد مكاناً يجلس فيه فواصل السير في الأرق واللتحيات :-

في ليلة من الليالي الدلهمية، رأيت رجلاً يحملون برميلاً ويصعدون للمدارق وبعد صعودهم بقليل سمعت صرخة أثار لها الظلمة وجهها.. وجئت من تلبية استعاثته. وبعد أن رأيت الجثة يغادرون المكان صعدت لأجد نزول القور الأول قد أليس درعا نحاسياً ساحناً، وحيد به كل شيء، وليل أن أستبين ما حدث، كان أحد أولئك الجثة قد حان وعندما غني ألقت بجوار تلك الجثة المصوبة، لم تراجع بل أقبل علي محطراً:

- هذا رجل نال جزاءه وإياك أن تفتح فمك كي لا تجاوره.

لقد مضت سنوات على تلك الحادثة، وأسرها الآن لأنه لم يعد بالحمر بنياً، فلبأت أولئك الجثة لنزع روعي التي أتت الخروج بالرغم من هذه الحياة الضيكني، والتي لم تعد قادرة على مندي بقليل من هوائها، فما أنا أجاهد من أجل الحصول على قليل من الهواء يمر بي هذا الرصيف الشالك.

إزاء هذا القول أردت أن أستوثق من الشرطة بالبحث في سجلاتهم

عن حادث من هذا النوع ثم تنوينة في الفترة التي حلتها الراوي، لكن محاولتي نظرت، وثقلت ثوبها من أحد الضباط، كاد يصل إلى إذعالي غرفة التوقيف - أحبل اسم الضابط والمركز الذي يعمل به لمن أراد إحصائي، فأنا أولاً وأخيراً مصحفي يؤدي دوراً نوعياً في المجمع كما يؤدي هو دوره الأمني بالضبط ..

مع تلك الروايات الداخلية، والمتقطعة طرأت على الجال فكرة ألحت على كل تفكيري كانت تتعزز كلما تذكرت أن علي أن لا أقامر في تقديم تحقيق فاسد - كانت الفكرة أن ألقن تلك الشقة، وحشية أن يعرفني أهل الخارطة - بعد رؤيتي بالأمس - فقد تذكرت في هيئة شيخ طاعن في السن وحملت معي بعض الحاجات البسيطة وانتقلت إلى الداخل تلك الشقة مبدأً عدم الرضى عنها على مسامع السمسار الذي كان يهتلق ابتسامته، ولسانه يسيل تحملاً:

- تأكد أن قلباً من الترتيب سيحيلها إلى نقطة تلازم بها زملائك.

كنت أهر إلى محتويات الشقة بازدياد، ورددت عليه ضحراً:

- أأنت متأكد أنها تصلح للسكن؟!

رد مؤكداً:

- مسجد كل الراحة بداخلها، فهي تطل على الشارع ويحصر إيجارها زهيداً ولها مميزات ستكتشفها عندما تسكنها.

كنت راغياً في الوطوف على كل التفاصيل عني أجد شيئاً يلينني

في تقديم هذا التحقيق. قبلت العرض، وخرج السمسار فرحاً -  
كنت متيقناً أنه كان يستغلني في دأبه، وربما خافه شعور الظفر  
لأنه استطاع تأخير هذه الشقة المهمة من سبيل طويلة -

مكنت بها لبين:

### الليلة الأولى:

أضحت ألقط تلك الشقة:

دهليز معتم ينتهي باب ذي لون باهت تعيش على زواياه أنسجة  
عناكب وأرؤفة نخرت خلالها.

وجدت نفسي محاصراً برائحة دفيئة، وذلك التعلل يقترب من  
الحركة إلا أنه حسب بنحاس فاكن، شيء ما يغريك أن تتأكد  
أنه تمثال وليس كائناً تصلبت مفاصله وبقي على هذه الهيئة.  
وكانت هناك ورقة صغيرة مثبتة على الحائط كتب عليها مواعيد  
لزبارة الدكتور وعلى أطرافها كلمات متناثرة (ما هو الحب؟  
الانفزام - البحث عن الخلاص - مسدس - صباح - المرحل  
المحدد ١ - ١ - ١٤٠٠ - وصية -) كلمات ليس بينها رابط  
وقد سقط بعضها من على الورقة وتبددت فوق الحائط ذي  
اللون الباهت:

هنا اخترت أن يكون ليبري، لا أحد يصدق حجم الكارثة التي  
عشناها، ولن يجرؤ أحد على الحديث عنها، أسرار تفاسمي:  
حيثي ووطني، وكل منهما أسلمني لهذا الضيق. هل أنا محتاج  
للتوضيح؟ أنا سأמות الآن بعد أن اخترت هذه الهيئة، سوف أصب



على حمدي رحاباً ذاتياً وسأطلق كمثال يكشف عبوة الواقع.  
ربما يأتي أحد في الزمن القادم لينش سبرني ويعرف الأسرة من  
كثير من الغم .. كما لا أقول الكارثة التي عشناها حدثت ميتاً ميتاً؟  
وهذه مشكلة أخرى، فلأننا نعيش على أناس مازالوا أحياء. نعيش  
عليهم من أيش. هل تكفي هذه الجملة؟

### الليلة الثانية:

والتأتأت أمام تلك اللوحة، ومددت يدي. كان اللون الأحمر يرق،  
وكم كانت مفاجأتي ضخمة! لقد كان دماً راحلاً، أصابني  
الرعشة والذهول، وشعرت بفؤادي يهوي إلى الأسفل، وأنا  
ألمس طراوة ذلك الدم. وقبل أن أتقن كان صوت ثقيل يتردد  
في جيات الغرفة:  
- ما الذي جاء بك؟

لم ينتظري صاحب الصوت كي أجيب بل أحسست به تلاصق  
كففي وتلهوني:  
- سوف أتركك لتكتب ما شاهدت وإياك والتدليس.

أحسست به لجذب حمدي تجاه ذلك العنبر ذي الرداء الشوكي  
وكلمات تتردد بنف:  
- لقد قتلوني، سوف تجد الدليل هنا.

سمعت خطوات سريعة تغادر المكان وأطلقت الأنوار، وسمعت  
خبر ماء يتدفق بغزارة حتى يحيل لي أن طوفاناً سيذك المدينة  
.. أحسست بالهواء يغمرنني من كل جانب، وكلمة حاولت رفع  
صوتي باستغاثة مضمومة لخمير صوتي داخل حنجرتي فأحذف

بيدي بكل فونتي، ومن بعيد أرى المياه تغمر المدينة وتغرقها نحو البحر من غير أن يرتفع أي صوت باستغاثة، كل شيء يتحرك صوب البحر بصمت واستسلام .. وهاء الصوت قليلاً متوعداً:  
- بلغ عني .. سوف آتي هكذا.

والثقت به حول عني لتخليتي من وسط تلك الأمواج العاتية، وغبت عما حولي لأستيقظ في الصباح واعداً أنني كنت أعلم.. وقبل أن يستقر هذا اليقين كانت ملابسني المبللة تعكر ذلك الاستمئنان، وبلغ من المياه تجمعت في زوايا الشقة، فأيقنت أن محباً من محاسن المياه قد فتح في لحظة مني. وقبل أن أتذكر من طمأنة نفسي بالدوران على تلك المحاسن كان الصوت الثقيل يجرب أرجاء المكان:

- أولم توفني بمقدمي ؟ أخبر عني. أخبر أولئك العاقلين  
أنني سوف آتي كما رأيت..

خرجت راكضاً بينما كانت الحارة مخلوقة في نومها وأنوار الأزقة  
تجاهد بمسألة في دفع ليل عظم بكثافة.

### ملاحظات على التحقيق

الرميل يوسف الخالب

نحية وبعد

هذا التحقيق لا يصلح النشر للأسباب التالية:

١ هل نضمن نفسك نكتب سيناريو أفلام الكرتون الخاصة

بالأطفال حتى نتصور أن القراء سوف يقبلون على قراءة تحقيق (لا أعرف أي وصف أطلقه عليه لكنه كما قلت أنت: تحقيق قاسد)؟

٢ هناك فحوات في التحقيق وإسهاب في المقدمة التي لا تفهم البتة ولم تُقرأ في حياتي - وأنت تعرف عمل تجريبي - تحقيقاً صحافياً يبدأ بهذه الكيفية. والمعارف لأدنى مبادئ الصحافة لا يبدأ تحقيقاً صحافياً بالكيفية التي بدأت بها، أو يكتب كلاماً كالذي كتبه.

٣ اللغة المستخدمة ليست لها علاقة بلغة الصحافة أو الأدب أو أي حقل من حقول المعرفة.

٤ ماذا يعني القراء من شخص غاب عن بيته في زمن من الأزمان؟ لتأتي حضرتك وتضفي عليه من القدسية والصفات البالغ بها حقاً بعد أن يمكثنا من وصم كاتبها بالجهل أو الغف.

٥ هناك تفاوت مهول في التواريخ بين حضور التزجّل ومن يتحدثون عنه.

٦ البساطة التي لم تشورع من ذكرها وكأنك تكسب في «الغوموند» وليس في صحيفة محلية. كان يجب عليك مراعاة القلم والنيل التي يخلق منها مجتمعا، فمجتمعا الثاني لن تمكث مجتداته مثل هذه الكتابات السخيفة والبتلة والشبهاء.

٧ وسحبك لإشاعة خرافات وخرطقات تتغالي مع قبحنا ومبادئنا

وتعاضني أيضاً مع توجهات البلد وروح المواطنة الصائفة. لذلك، فأنا أحثرك من مغية الأسياق خلف هذه القرهات، والاستخفاف للهيئ بعقلية الناس ذلك الاستخفاف الذي بدأ حقاً من خلال ما نطعن عليه عملاً صحافياً عارفاً.

٨. لنفك الفاضح والذي حاولت فيه استجلاب تعاضني معك مع معرفتك الأكيدة أن على هذه الجمل التي ذكرتها لن تنشر وإنما حاولت أن تمررها علي وكأنتك تسخر في داخلك مني، وهذا الشعور يدل على غيبك وصدا معدتك وأن لك نفساً رعيصة مستذلة لا ترى أبعد من ذاتها التي تحاول دائماً تضخيمها مقابل إنقاص قدر الناس.

٩. من تظن نفسك؟ أنت مجرد مطر صحافي لا تزال في أولى درجات سلم الصحافة، وأنتك لن تقف على أول عتبة لأنك لا تمتلك أي موهبة. أقول هذا القول لأنك كتبت في بداية التحقيق (كتب يوسف الغالب). هذه البداية لا يمكنها إلا وليس التحرير أو نوابه أو كاتب جهيد له عمر طويل في دروب الصحافة، أما أنت فتظل مصدراً نكراً، فضلاً عليك يمكن كتابة اسمك على الأخبار السفينة التي تأتي بها من خلال الهاتف أو حركة أخبار الوكالات.

١٠. أنت لا تصلح لأن تكون صحافياً أو أي شيء آخر. وصيني لك أن تقدم استقالتك.

١١. صحيفتنا ملزمة منذ أن انطلقت في ميادين الإعلام بالابتعاد عن كل الانحرافات التي يشيعها مرضى النفوس والعقول،

ولن نجرعها بكل هذا التحقيق السخيف إلى مزلق لرحمة  
ومشرفة.  
هذا التعلم...

### ملاحظة أخيرة:

إليك ثم إليك أن نلجأ لمحاولة تحرير هذا (الشعرية) غير رئيس  
التحرير، ولا احتاج لأن أذكرك أنك بكل هذا التصرف تعدى على  
ملاحظات رؤسائك.

مدير التحرير

محمد العائش

٢ - ٥ - ١٤٠٩

### توية:

لا أزال احتفظ بهذا التحقيق من غير أن أتمكن من نشره  
من عشرين عاماً.

يوسف



## الأوغاد يضحكون

يسلن ضوء القمر عبر منفذ صغير استقر في أعلى العبر، وحين تحلق  
بالظلام لا ترى إلا أحساداً مقلوبة في أحلامها الباتة يعمق وعلو.

الليل منفذ واسع للهبوط من تلك الآفات التي تنقب الصدور،  
كان الخبيثة - وهو أقدم سجون - ورد:  
- إذا كثرت أحرقتك، ثم.

فأصبحت مقولته قاعدة نستتر بها من زعجات أحرقتنا الكثيفة، فما  
أن يهطل الليل حتى نصالح إلى مخادعنا السحر ذكرى قديمة أو  
حلماً يتر من الجبال بالفضاض.

منذ ليل مضت لم تعد نسمع بالنوم، فما أن تغلق عيوننا حتى

بغالي صوت دمدمة وفرع طول وروائح لفتى محترق، وفي أحيان كثيرة رائحة شياط لذيفة تشوي على حبة أصوات تدمدم بهمة وأقدام تضرب الأرض بتوتر، ولم يكن أحد ليحرق على فتح عينه بعد أن فقلت عين البوري بحرية انطلقت من الظلام لتفجر محاربه وتترك له حفرة خاطرة وهباً منطفلة، فيما بعد أقسم أن ثمة من يسكنون هذا العنبر، وروى أنه رأى جماعة من التزويج تنور حول نار ملتهبة رائحة حرايبها وزمجرتها دائمين الأرض بغضب نافر من سمحتهم التشابهة. وحين رأوا عينه المخلقة بهم أطلق أحدهم حريته بانجاده.. وبعد أن أبلن من ذهاب ضوء عينه أصبح لا ينام. - يقول بعض من تصح أخباره أنه أدخل مستشفى المجانين، وأنه يجالس أقرانه يوماً ويحكى لهم سبب انطفاء ضوء عينه اليسرى. - فما أن يأتي الليل حتى يصاب بهاج وسعار ويضل يقفز من مكان إلى آخر صائلاً: - الجن ينظرون نومي حتى يذهبوا روحي.

وشاخ غيره في بلية العنابر وأصبح المساجين يظفون على عثرنا (عثر الجن). وحين وصل الخبر إلى مأمور السجن سخر من عقولنا الصفيحة. - على حد زعمه. - وعزل البوري من عثرنا بعد أن أشبعه ركلاً في محاولة لمعرفة من قام بفعل عينه، وكلنا ركله أكد له تلك الواقعة التي رواها لزملاته. - حتى ملوا من كثرة ترويضها. - فزاد المأمور سخطاً وتشكلاً به، ولم يتوقف عن إيذاته إلا حين نقلت إليه عيون أن ثمة أصواتاً تخرج ليلاً من ذلك العنبر ولا يعرف مصدرها بالتحديد! عندها أصدر أمراً لبعض حرمه بالتلصص بين المساجين خفية والقبض على العابثين الذين يقومون بإصدار تلك الحيلة ليلاً، لكن الترقية لم تضر شيئاً وظلت الأصوات تواصل جواربها الليلية.

في تلك الأيام أصبح الليل وحشاً ضارباً لا نستطيع دفع أعوانه منه



إلا وأغراض عيوننا والإنصات لتلك الأصوات حتى مطلع الفجر وما أن نحمد حتى تسرق قبلاً من النوم قبل أن ترفظاً أذنبة العسكر.

في إحدى تلك الليالي تجاسرت وقلعت عيني، كان العير غارقاً في الظلمة، فأخذت أنقل بعصري هنا وهناك من غير أن أعثر على شيء وقل أن أشتقهما تحت حود ثياب يشتعل في ركن قصي من العنبر، أخذت روحه تنمده في كثرة قش فبهجت الدخان ونار متكاسلة هبت فتية مع فرع طيل هيج سيقاناً قابلة في ذك أرضية العنبر.. ورأيت شرنوكة يلف متصفاً رافعاً يده بحرية ذات تصل دقيق ويدور ضارباً الأرض بقدميه يوتر والفعال زائدين، بينما كان صوت الطيل يعلو على صيحاته المنهجة المستعجب لها صيحات حادة متوحشة أقرب للعداء تأتي من أماكن قصبة أنت مليئة تلك الصيحة، ثمر يغالها ومواسيها. والقوا حول النار المستعرة يضررون صدورهم بأبداً غسست في دم نر من عجل ثمر لثو وعرفوه بحرية جرت في فمه ولم تطق أن تغيب في أحشائه طويلاً فظهرت من دبرها وحملوه ليستقر على وتدين نصبا بشكل متواز بينما كان زلحيان يمسكان بطرفي الخازوق ويقبلان العجل ينهل على نار أضمرت من وقت مبكر.

لحت شرنوكة برقص في دائرة يحف به رجال سود كالطيل، يحترمون بشفاق ويستلحون بأقوات بدائية وأيديهم تمسك بحراب مدينة يرتضونها بين لحظة وأخرى على رؤوسهم وإذا أنزلوها جافوا بها صدورهم كمن يستمد الخلف مطلقين صيحات الظفر.. بينما كان شرنوكة يترقص فتهتز كل مفصل جسده وفق قمرحات طيل تكفل بقرعه أحدهم، فكان المكلف بضرب الطيل بهضام لغيمات ثقيلة حياً وسريعة في أحيان أخرى ليستعجب لها جسد شرنوكة

بطناً وتدفقاً ويهتز كموجة تطلق على نفسها ويتطرق نحو النار  
عاشقاً من جسارتها وثائراً بإعها فوق رؤوس الصيادين به فيكون  
أسفل قامت سجداً ليقرر حالاً ضارباً الهواء بسنان حرته ويصبح  
مجداً:

- من سين جنو لا يك من جر عرج<sup>(٥)</sup>

في إحدى فقراته ثلاث أعيناً فأشار لي بانخفاض عيني، وعددا لم  
أستجب لإشارته رأيت زخماً - حجري الملاح - من خلف شجرة  
يستعد للذاب حرته بانجاعي فاحترني الحوف وانخفضت عيني على  
عجل وتحتفت بخطائي وأخذت أستعيد بالله وأجاهد نفسي لتغلب  
على خوفها، وكلما حاولت الانغماس في النوم تعالت صيحات  
أقرب للعواء ودمدمة ثقيلة رتبه فاحت على إثرها رائحة شياط  
لعجل نز سمته على نار مستعرة .. ومن بعيد بعيد جداً تأتي  
أصوات متداخلة تمضغ الكلمات بلكنة غريبة وإن كانت متضمة  
بشق تنسبها صوت شرنوكه حلواً مزيجاً:

- من سين جنو لا يك من جر عرج

يختلط صوته حياً بالصوت منهجة وبغاء أقدام وعوار نور وربما  
شخير إنسان مرقع على نحره شفرة حادة. بعدها هدأت الجلبة  
وعاد السكون للغر شيئاً طفيفاً وغرق في الغصة والصمت.

في الصباح اقرب مني شرنوكه وحمس:

- إليك أن يعلم أحد بما رأيت ليلة البارحة. وحين هممت  
بملاحقته بالأسئلة كثر على ألسانه:

(٥) أنا عارج الزمن أيا الأرواح.

- يكفي ما رأيت .. ونذكر أن ثمرتك تقابلها حياتك.

وعندما لم أجد أسلتي عليه أصبح أكثر ودًا معي.

28

السجن بضيق حتى يصبح صدرًا إضافيًا يخلق بداخله القلب بتوتر، وتندو الحياة قلباً رتيلاً، تملأ قطعها بكلمات ميتة تسير سير متعلقة حرة. كان مقرراً علينا أن نقضي زمناً طويلاً داخل هذا العنبر، فقد تعددت جرائمنا، وحسنت ضمن الجرائم الخطيرة والتي توجب السجن لسنوات طوال، هنا يصبح الزمن وجوه أناس تأملها ونقرأ تفاصيل ماضي مرغل في التوس وغد مضطحل لا يبين، تسير صوبه تلك الوجوه من غير أدنى تكرات ويصبح الحد وجوه أولئك الذين يفعلون أو يخرجون من هذا العنبر، ويكون زمنا غصياً حين يهمل علينا نزلاء جدد نتعرف من خلالها إلى ما يحدث خارج هذه الزلازين التي ملئت من أفاعنا وروايتنا، ليس هذا فحسب فمع مقدمهم نحصل على الدخان وبعض الحاحيات البسيطة التي تحتر داخل السجن كنورا تميز بعضنا بعضاً كقشة أو قطعة صابون أو منشفة أو سروال، أو (كشيشة). ولتقدم هؤلاء النزلاء - الجدد - طرحة تسري بيننا وتقبض من تلك الوجوه القالة حيث كنا نستعد لمجيئهم باحتلال الأماكن التي يتم إخلاؤها من تلك الأحساد القابلة التي تعاقبنا بالإفراج أو القصاص، ونقوم ببيع الأماكن الشاغرة للمقادمين، وبالتالي يتيسر لنا بعض المال نستطيع من خلاله أن نتدبر بعض الأمور التي نحتاج إليها. بالرغم من اشتغال بعضنا بأعمال مختلفة في داخل السجن، إلا أننا نضيق ما نحصل عليه وراء إشباع نزوات

حشواء سرعان ما تلاشي في حفنة الليل خلف ظهر اثنين الانطاح  
وتعمل أهاديا الشبهة على كلفه بشق.

شيء فطر أن نقضي وقتك تطارح فالتك بعض التراء الذين  
أفمنوا العودة وجدوا تجارة رابحة لفر عليهم لئال السير الذي  
بين أيديها، وقد بدأت هذه التجارة بحلب صورة نبيلة عبيد،  
كان إبحارها لليلة واحدة خمسة ربات والساعة برمال واحد  
ولكن الأتول تعلق ميكراً فقد كان الياح يستوعن بحلب شموع  
بتم تهرينها بالصالحها بأهلى حاله - بعد إزائتها - ولكي  
تسأجر الصورة عليك أن تسأجر معها قطعة شمع وتدير كيف  
تشعلها بعد أن يخلق الحرس أنوار العنبر، وبعد دخول صورة نبيلة  
أصبح الداعون أكثر نقداً في حلب الصور الأكثر إثارة وإشباعاً  
للهم الذي نعيشه.

أصبح العنبر شيئاً للدرجة أننا أوكشنا أعدنا بمحاولة الأمور نرحوه أن  
يزيد نسبة الكافور في ما نأكله ونشربه، إلا أن شيئاً لتجاوز الحدود  
ولم تفلح معه زيادة الكافور وقد اثنين بعضنا الانطاح ليحصد المال  
بهذه اللمة الفلذة.

لم يكن متفراً لمجموعة كبيرة أن تغادر هذا العنبر في وقت مبكر  
لذلك كان حاجتنا كيف يمكن لنا أن نقضي أيامنا من غير أن  
ننتطح إلى الغد، وإن فعلنا فعلنا أن نضيق كثيراً من الأحلام الصفوة  
والكبيرة في انتظار أن يأتي ذلك اليوم البعيد.

كان محاورني أحد الأملولة - ويدعى شرنوكه - والذي كان  
مشغولاً بالتمخطيط على أرضية العنبر ورسم أشكال بدعته، ولم

أكتشف مقدرته الخفية في الرسم إلا في إحدى الأمسيات حين مد يده بورقة بالجلعي ففعلت لتلك الرسمة التي حسد فيها هبتي. وأصمت الضويل كنت أظن أنه أصم لو أنه لا يلفه العربية لكنني اكتشفت أنه يلعب بلسان لرب وروح حلوة منعشة للحياة. وقد عرفت فيما بعد أنه قعيد إلى السحن بهمة مزولة السحر.

وحين علم زملاء العصر نهمه أخذوا يضاحكون ويلمونه:  
- لو كان ساحراً لما استطاع أحد أن يقنعه إلى هذا المكان  
لنعم...

كان يسمع أحاديثهم ونكاتهم بشيء من الثقة نازكاً اهتمامه لتسلي على شفوية العليين وجبهة الصغرتين تعصفان في تلك الوجوه للكدودة.

في إحدى الليالي تسامنا. قال إنه قدم من خلف جبال تكوتا حيث السحر والحمال من قرية ما زالت تقع خلف التاريخ، وفيها أمان لا يعرفون سوى الغابات وأغالي الأمطار ويندسون الروح المخلقة في الفضاء.

ذات مساء وبينما دخلنا في نومنا سمعت ههنة وبكاء مكتوماً - كان هذا قبل فقدان الوري لعنه اليسرى - نظيت فرائيت مشرورة يجلس القرفصاء ضاماً يده إلى صدره، اقربت منه:  
- ما الذي يبكيك؟

وكنتم أمتك به وهو يسرق النفض وسارع إلى مسح دمع عينيه، وبشيء من الخلطة لنم:

— هذا شأن لا يعينك.

فما زلت أتودد إليه حتى أثبت شوقه دفقاً يمر كلمات مثقلة حيناً:  
— اشتقت لقربني وتلك الوجوه السمراء المزروعة في  
الأرض.

وضعت يدي على ظهره مهدداً:  
— عليك أن تنسى لبعض الوقت حتى تنهي مدتك.

ضغط على زائدة بقوة ففرت عروقه بوتر وكز على أسنانه بضغط:  
— إن دمي يتلوث خلال سنة، ولو بقيت لمدة المقررة  
هذا فساوت.

وانهار واعتلى تحية لينهض بعض زملائنا محاولين تهدئته، مسح  
مخاطه بلاتكة المسخة وتطلع إلينا متصفاً وجرحها وقال بصوت  
واثق:  
— سأعرجكم من هنا جميعاً.

فانتفت ضحككنا، لكنه لم يبهلنا وفقاً لطريقه:

— أريد أن تشركوا لي هذا الجدار من أوله إلى آخره،  
وبعدما ستهرب جميعاً. فازداد ضحكنا، ولكنه كان  
أكثر احتشاماً وتصميماً، ولم يقابل إلا بالاستهزاء  
فسكت على مضض، وفاتحنى بعد عدة أيام بأن أقدم له  
يد العون في امتلاك هذا الحائط لتقبلت كلامه بشيء  
من العطف:

- أنت تعلم أن لكل سجين مساحة معينة في هذا العنبر  
ولن يتأذى لك أحد عن مساحته إلا بمقابل، فقصت  
وعاد إلى مكانه سارحاً، وفي اليوم التالي استطاع شراء  
كراسة خريطة بواسطة أحد العسكريين المتعاطفين معه  
واعلمهم رسم السجناء، كان يبيع الرخصة برمالون ولم  
يخسر عليه وقت طويل حتى أصبح يمتلك بعض المال  
دفعه لأقدم سجين في العنبر وحصل على مساحة ثلاثة  
أمتار من الحائط. كان ذلك السجين قد ورت منين من  
زميلين ثم تفيد القصص بهما وأن إليه المتر الشبقي كهيئة  
منحها إليه سجين أفرج عنه وأقسم أن لا يعود للسجن  
مهما كان الأمر. وبعد أن تم تلك الأمتار الثلاثة بدأ  
يوسع في الحصول على بقية الحائط.

الآن نذكر أن دمية الليل التي تحدث في عنبرنا بدأت تظهر بعد أن  
استطاع امتلاك نول ثلاثة أمتار من جدار العنبر.

صباح تلك الليلة التي رأيته فيها محفوقاً بالزئج، حلاني وحفوني  
من غبة أن برل لساني بالإنصاح عما رأيته، وخوفاً من تعذيبه فقد  
التوت العصمت ولم أبح لأملاني بشيء مما حدث.

ذات صباح استيقظنا فوجدناه بمسك بعيدان صغيرة غريبة الشكل  
شدت على هيئة أفلام قال إنه جلبها معه من أدغال أفريقيا من  
شجرة (موسى ادما وباب) أحرق أشجار أفريقيا والتي تقطنها  
مجموعة من القبائل القاحلة في أدغال الغابات الاستوائية. تلك  
الشجرة التي تذف بها نهر الخلود فلبثت مشعرة منذ ملايين السنين  
ومن أكل ثمرها أو أصاب جزءاً منها امتلك سر الخلود.

كان يتوقع أن تتدافع لدى تلك العبدان وقد أبدى الحذر بحصنها في حجره. وعندما رأى مؤخراتها لا تخرج من مراقبها أعاد ثمر عبدته وتشذيبها وأخذ يغرس أسننها في محللول لونه كاللون الدم كان يحصله بين ملايسه، ونهض في مراقبه ذلك الحائط وشرع في رسم هيكل السفينة كبيرة.

الحظ الزلاء، حوله سهوون واثقانه لرسمه العجيب - والغريب أن هذه الرسمة كانت تحتلني من على الحائط عند دخول دورية التفتيش (وهذا ليس كذاباً فقد كانت تشف ويهت لونها فلا ترى) - وظل الوقت ليس بالقصير يرسم سفينته ويدخل عليها التعدادات الثانية حتى إذا ألم برسمه صاح:

- اليلة سوف أرجل فمن يصحني؟

فتضاحك الجميع، ليحولوا صوته القالب يعطل قهقهاتهم وينخر مناسمهم كأداة قلب مدبرة على الجدران في الصخور الصلبة:

- كفوا عن حماقاتكم ومن فرد مراقلي فتتحرك.

تخشب معضداً، ومع صرخته الثانية كما نلف بتخاذل حائرين ونحن نتطلع إلى هيبته التي تغيرت وأحدث أقرب لهيبته تمر ضام بهتم بالانقضاض على من محللول التحرش به فانطدنا لظفراته باستسلام، ولكني لا يفقد رئيس العنبر هيبته فقد اعتبرها لعبة يمكن أن ندخل السرور إلى قلوبنا، هذه الجملة التي تعلقت بها كرامتنا الهدورة أنقذت كبرياننا أمام بعضها البعض. وسرعان ما تحولت إلى لعبة حقاً أيدخلها نزلاء العنبر كبرويج عن أنفسهم والمخرجهم من مثلهم بعض الوقت.

فام شرنوكه طوزعنا على هيكل السفينة المرسوم وأمرنا بالوقوف



أمام المكان المخصص لكل واحد منّا، وطال وقوفنا فتملأنا  
الكثيرون من وفقتهم وانسحبت مجموعة كبيرة بعد أن أظهر  
شروتوكه الذين مع من تنازل في وقتها، حيث كان من المقرر أن  
تقف من الأصيل إلى المنحرف، وقد استقر شروتوكه في مقدمة  
السفينة وهو يتطلع إليها بثقة ولحمض على العنبر، وكلما  
تفاهت قامت صاح:

- رحلتا ليست في حاجة للمستخدلين، ومن لم يجد  
في نفسه العبر فليدار سفيها.

كما نغامر، ونسادل الألباس بلا مواربة من جعلته تلك التي  
كان يرددتها بين الذين والأعرج، ولجراً الهمني بالإفصاح عن  
سخرته:

- ركبت في راس العبد بفكرنا راكبين سفينة بحل  
وحقيق، يا جماعة فكروا من تكرته، بلعن أبوه على  
أبو السفينة.

فالتفت إليه بعين حارقة ونفس حامضة، ودمدم ولكنه ملهفة  
بالشمسة جعلت من رأسها بكنم ضحكته لا إرادياً، وإن بقينا  
نعلن استعانتنا له في داخلنا ونلوم بعضنا على هذا الميث الذي  
نحن فيه. وبعد مضي ساعة تراجعت مفاسيل الحشبة وشعر  
بالإرهاق فصاح:

- يا جماعة والله لم أقف في صلاة مثل كل هذا  
الوقت، وإن أقف لأحد.

ولمرك من مكانه وقذف بجسده على فراشه مبدئاً الإجماع، فصاح به  
شروتوكه:

- مقدم.

فرد عليه بضيق:

- لو لمعت لا تدخلني الجنة.

وبعد انسحب الهنسي، فرتب العنبر ثم قامت مجموعة كبيرة، ولم يبق في مكانه إلا خمسة أشخاص كانوا يحلمون بالمهرب من حد السيف.

ومع الغروب دخل إلى الحمام ودان على رأسه الماء والغسل جيداً وليس ملائمة الشعبية وحلوس متشرحاً بعد أن أمر من بقي معه بالذهاب للاغتسال. وظلت انتباهته تنير وجهه وهو يحرق من انسحب على انتهاز الفرصة، لكن أهدأ مما لم يكثر به، حتى أنما الذي استهوته اللعبة منذ البدء تراجعت وسفرت مع الساعدين، فقال بحرم:

- مستسلمون في الصباح.

وعندما استوثق من عدم إحابتنا لما يدهو إليه، جمع من وافقه ووزعهم من جديد على هيكل السفينة المرسوم على الحائط وأمرهم بالهتفت حتى يحزن موعد الإبحار، فجلسوا في أماكنهم صامتين بينما تقدم هو مقدمة السفينة وأخذ يتعمق بوقار ومتابعة. لم نخرجه مخربنا عن قنصلته وخشوعه، كانوا كلهم كالخشب المسدة إلى الحائط، وحيناً ذهب تنكيتنا وضحكنا، وما خرجوا من صمتهم، فتركناهم على هيتهم والقلبا لأحوالنا.

أخذ الليل يعبرنا ببطء ونحن نراول ليلنا كالعتاة في اللعب

والأحاديث، والالتفات إلى أولئك المختفين في أماكنهم بهيمت  
والقدر عليهم، وعندما انطفأت الأنوار تمنا ونحن لتضاحك على  
ركاب السفينة، ومع منهيف الليل سمعنا هديرًا عاليًا ورذاذ ماء  
مالح يملأ أجسادنا وصفارة قوية تبعث في هجمة الليل ولعة سفينة  
تشق العنقة في مروج ملاحم.

١٤١٦

كتب خلال عام كفضل ١٤١٥



## ماذا قال القميري؟

الشوارع مملوءة بالناس، والكل معلق بعصره في السماء، والدعشة تنزه على الوجوه بطلاقة.. كان حدثاً مشيراً لا يمكن تصديقه، ولولا حدوثه أمام أعيناها لظن أنه إحدى التطلعات الإعلامية التي ابتلي بها مؤرخاً، وعلى أبعد احتمال أن يظن الرائي أن بالوتاً كبيراً أطلق في الجو قذيفة أبحاثه، خصوصاً أن إسحاق أبو حمدة قد توعد بإطلاق طائرة كبيرة تعيد له زبانه الذين فقدتهم في الألعاب المستحدثة، لكن هذا الاحتمال مات فجأة حين تراكم على عتبة القوم وهم يسكنون القوم على العمدة الذي فقد شاله المجلس أثناء الركض، وبقي بقرفة حذاء واحدة وجرهم عن مواصلة تفرقه:

- فخر الله وما شاء فعل.

خرجنا جميعاً نركض في الشوارع والأزقة، كانت ملاهى الناس،

بدأ الركن من حيا ثم توصلت الأقدام وتوالدت الألفة والشوارع والميادين. أفاست لو قدر لراه من على رؤيتهم حرم أن كثرة عظيمة حلت بمدينةنا، حيث كان البشر يركضون إلى عمارتها في اتجاهات مختلفة كخلايا السمل، ولم يكن ركننا منتظماً فطعت العشوائية والتافقتا الشوارع وتداخلت أصواتنا كل يوم في الأمر بالركن في الجاه مختلف. وانرى كثير من المشهود، والاستغفار بعد أن صاح أحد الشيوخ: - والله إنها القيامة ولو لم تكن فهي فائتة لها.

وسجد ولم ينهض، متمنياً أن يقبض على تلك الحالة، ولم تخرجه من سجوده تلك الأقدام المراكضة والتي كان من الممكن أن تهرمه من غير أن تشبه اسجوده.

وتخللت النساء من أي سائر يسير فنتهن وقودهن الممشوقة وغيرهن فزاعات حياتيات الأعمار والأفئدة، وفي حلاتهن تلك لم يفر من الرجال بالنظر إليهن، أو استراق النظر لحفاتهن العتيقة حيث كان كل واحد مشغولاً بهول ما يرى فقد ظلت العيون معلقة والأفئدة تسيل بالاستغفار، ولم يكن أحد يملك وسيلة لإيقاف تلك القوضى التي دبت في الحلي، وقد استجابت النساء في بادئ الأمر لفضول أطفالهن فمدن أعضائهن من الأبواب والنوافذ وعندما هالهن لشهد تراكن منهن، لكن الأطفال استشعروا الخوف فأسرفوا في اليكاه لبيادهم أنهارهم اليكاه بعويل فاجع. كان الجميع في حالة اندعاش، والسكيت كثير من القولات التي لم تجد من يصمت لها ساعداً، وكان أكثرها ترديداً مقولة الحسيني: - والله هذه دعوة أبو عبدالله.

كما جميعاً تركض ولا تعرف بالتحديد إلى أين، فقط كانت عيوننا

معلقة في السماء ونحن نابع عثوه وكأنه طائفة ورقية التقطع بحملها فأخذت تبعد وتزحف في السماء وتركض السدى البعيد.

٥٥

ناقلة أغلقت عرقها، فبليت شقوقها تنضج ما بداخلها، أصل العصبية حينهم بذلك الشقوق، وانماقوا كل منهم يزجر الآخر ليحلي مكانه مفسحاً المجال للآخرين وإلقاء نظرة عاطفة إلى داخل تلك العرقه ذات الإضاءة الشاحبة. كانت تلك المباحكات تحدث بصمت بينما العيون تبادل النظرات بغضب، والأيدي تعتبر عما يجيش بالصدور، مكتفون بجذب الفتلات، أو التخييط على ظهور الغارقين في تأمل ذلك الجسد المتضج.

ولم يكن ذلك الصمت الغارق بين العصبية إلا وليد خوف من أن تسمعهم زوجة القمريري فتخرج لخارجتهم وإلقاء الحجارة على رؤوسهم أو إلحاق الشدائم بهم ومن يدعم على الأرض.

كان النظر مغرباً بفناء العين متعصفة بشقوق الدرقنين الحشيتين والتي انطلقت منذ عشرة أيام.

ثم اكتشفت تلك الحالة العجيبة بالصدفة الخضة:

لم يكن القمريري يترك صبياً يلعب بجوار بيته إلا وعاشقه من أخته، وأشبهه ضرباً، لذلك تعود العصبية على الابتعاد في العيهم عن بيته، ولم يشجعهم على الاقتراب إلا غياب القمريري المتقطع حيث كان يغيب ثلاثة أو أربعة أيام ويعود من جديد صاعباً غاموياً ككلب غيور.

ولم يكن أهل الخي يعرفون سبباً لهذه الغيبات المفاجئة والتي كان يعود بعدها مملئي الوحة وقد بدت عليه السمكة وتردعن وحشية تاركاً وجهه كمنقلاة دعنت أرضيتها يشحم مكشكف، مما جعل أحد الشافعين عليه يرد على تعجب عمدة الخي حين أبدي دهشة معلقة:

- والله القميري صمن.

فرد عليه مقلباً:

- الزبيب يا عمدة.

فرجوه العمدة مستغفراً:

- يا رجل خالف الله.

لم يكن أحد يعرف أين يختفي في تلك الأيام الخي ويغيب فيها لكنهم ألفوا هذا الغياب المتقطع، وأقبلوا في صباحهم عن ترويد:

- ماذا قال القميري اليوم؟

مع هذا الغياب نجاسر العصابة ومدوا رقعة لعصم حتى توصلت بيت القميري ملعبهم، كانوا يعلمون علم اليقين أن كرتهم إذا (تسطحت) بيت القميري لن تعود إلا أشلاء ممزقة، وانظروا أن لا تعطي الكرة سور الجدار بأي حال من الأحوال.

اليوم ارتطمت الكرة سور بيت القميري واستقرت فوق سطحه، فتراكضوا هرباً، وظلوا ينتظرون كرتهم أن تلتدلف ممزقة، أو أن يخرج القميري حاملاً عصاه ليطاردهم بين الأزقة المظلمة كعادته صامحاً بهم:



— يا أولاد القزنا.. ألا تجدون مكاناً للعب غير حور  
بني؟

وبعدما لاحظت تلك الشبهة في الخروج، وظل باب البيت موصداً،  
ولم يذهب بالكرة أو يخرج إليهم، اقتضوا بغيبابه، واقتنعوا أنهم  
يصعد لجنيها. كانت الفرقة من نصيب ابن السقاء، فتجاسر بعد أن  
قرأ المصروفات وسمع كشفاً هائلاً من تحفيزات أقرانه، ارتقى الجدار  
مستعيناً بأسياخ نافذة بيت القميري النافذة، وفي ارتقائه تخشب ولم  
يكمل الصعود، فكان أقرانه يحضونه على الصعود بتحفيز  
مضاعف، تخالطه شاتم بذقة:

— اصعد..

وتظاهر سيابهم وهم يلمحونه تمسكاً بأسياخ النافذة ويتطلع من  
شقوقها إلى داخل الغرفة. كان غالباً من غضبهم بالتحديق والذهول  
وقد جمحت عينا وفز الهلع منهما فسقط ملجوعاً وولى هارباً  
لينبه أقرانه راكضين، حتى إذا هدأ روعه أحضرهم بما شاهدوا فعاثوا  
وخرصوا عيونهم عبر شقوق الشقوقين الخشبيين التي انطبقت على  
بعضها عند حشرة ألهم مضت.

٢٠

القميري شخصية عجيبة وطريفة تخر مختلفها صفات ملونة، يصفه  
أهل الحي بصفات ذميمة كالخسة والبذالة وقلة الثروة والصفافاة،  
والدناية، ورغم صفاته الخفية السعدية التي يتجول بها بين الناس،  
كان محيط اعتصام الحي، فالجميع يتناقل مقولاته، وبروجونها وهم  
يلعنونه ضاحكين:

— لعنت الله يا قميري، من أين لك كل هذه البنايا؟

لم يكن له صديق وإن أبدى الجميع حرصهم على صداقته والرحيب به خوفاً من لسانه الضفيل في سائر الناس كخضجر قصاب يعرف كيف يحري بين العصب والعظم كان لا يتورع عن قول ما يشاء وفي أي مكان يوحى فُعل برف بارد فظل مهالبا بمن يخشى سلاطنته وهادته من كان يخشى على سبرته أن تعيبها دناسة لسانه. وبمقدرة فذة استطاع أن يتعمق في حياة من حوله ويعرف أحوالهم الدقية ويشرها في الشجارات الصغيرة والكبيرة، وقد أقسم أحد السنين أنه من نسل إبليس وقد غم على من حوله أصبه لأنه يصر في ملابس البشر.

ولم يكن يمضي يوم إلا وأحدث شجاراً أو عثا فضيحة بهامة أحد أبناء الحي. ولكنثرة شجاره وسبابه، أصبح من عادة أهل الحي أن يتسألوا كل صباح:

— ماذا قال القميري؟

أو:

— ماذا فعل القميري؟

ولشدة بذايته فقد وصفه المروكي:

— لسانه تقع في نار.

ولم تلعب هذه القنولة أفراس الرياح، فقد علم بها القميري، وكان له من السباب ما جعله يمتن لو أن الأرض خسفت به قبل أن يسمع تلك الشتائم التي نالت عرضه وجعلته مضطعة على كسبة الحي.

لم يسلم من لسان القميري، إلا الهم عبده بالغ القول، فما أن يظهر في مجلس أو على قارعة طريق حتى يختلفي القميري من أمامه، صامتاً متمسحاً به بلسان تروى أقرب الترفل والهذاتة، وإن بقي في مكانه بش وهش في وجهه واستفحده مهلاً ومرحاً:

- هلا بالعم عبده نور الخي وبركته.

وبداً بالطلاق الأمان المشددة:

- والله لو أن الأرض بها اثنين من أمثالك لسبقنا بالخرق يوماً.

فردد عليه بحفوة:

- ولو أن بها اثنين من أمثالك لخطرنا بالحجارة كل دقيقة.

فتكتمش ملباً على أساور وجهه متفتحة.

ولم يكن أحد يعرف السر الذي يجعل مفاصل القميري ترتعد عند رؤية عبده القوال.

وفي إحدى الجلسات مثل الهم عبده عن السبب غابهم واكتفى بقولته التي أصبحت مثلاً فيما بعد:

- القميري مثل الزنبرك، إن رفعت وجلت من عليه طار في وجهك.

كان طارئاً في كل شيء، ولا أحد يعرف بالتحديد من أين جاء، وإن كان البعض يصدق بقوله عبده القوال الذي كان يمايله بدونية

منذ أن قطعت حارثا ويقول عنه إنه من تلك السلالات الخفية التي تعيش على الهامش وتنتظر أي فرصة لتسلق وتدعاه أصالة العبد، وكان دائماً ما يوصيه:

- القميري مثل الزنبرك إن رفعت رحلتك من عليه طار في وجهك.

ولم يتفق أهل الحارة من تلك القبيلة إلا بعد فوات الأوان فقد نقر في وجود الجميع ولم يعد أحد قادراً على التعرض لظفارة لسانه أو سد مكانه الخفية.

وقد دأب على الظهور في كل المجالس، يشتم ويهتك ويتشاجر، كان محباً في كل تصرفاته فهو قادر على مناصرة الجميع إن أراد، ولا يتورع عن قول أي شيء، فاكتمل عدواة الكثيرين وإن لم يظهر تلك العدواة إلا القلة.

ومع غيابه شرحت قلوب بعض من بهاب لسانه، وإن تحول السؤال عما قال إلى السؤال:

- أين انتهى القميري؟

\*\*\*

أسرت زوجة القميري حديثاً جارثها، فأقشمت به ومري في الأقواء كالخلوى المستطعم، كان الرجال في مجالسهم يتضايقون وقد أهدوا كثيراً من الانشراح للزوائد التي صاحبت الجبر.

قالت تلك الجارة:

رأى القسيري في المنام أنه يحلق في السماء كعصفور، وكلما أراد أن يهبط إلى الأرض سمع منادياً يهتف به:  
- مكانك هنا.

وأول حلمه لروحه بأنه بشارة لارتفاع قدره، لكنه أبدى تشككاً في الثبلة التالية حين رأى الدبدان الضع أطرافه ولا تبقي له إلا علي جناحين مبهضين، وأصبح لا يستطيع من نومه على يرى نفسه وأضحاً لحلمه الأول، كان ينام لثلاث ليالٍ، وإذا استيقظ هات في الحى سبأاً وشجاراً.

أما الزوائد التي تحقت بالحير فهي كثيرة، وكلها تسخر من سقم عقل القسيري، أسرها أنه سكير لا يقبل وأقبحها أنه لم يعد قادراً على إتيان دجاجة فيهرب إلى النوم خشية الانضاج أمره مع امرأة غدت توسع لوماً وتهدهد بتعليق لمحوته الرعدة على مسامع أهل الحى.

ويوصون مشهداً أخيراً لهذا العجز قائلين: مصيبتك جاءت من دعوة أطلقها عليه الشيخ أبو عبدالله، حين سخر من ثلاثته على اللأ، فرجع الشيخ المضطرب منه إلى السماء داعياً اللهم أمت أوصاله حتى لا يسر نفسك، أو أسقط عليه كسفاً من ليل لا يبق منه.

ويقسم الكثيرون أن ليله يقول لعشر ليالٍ

ترك العيبة ملصهم وكرتهم المعلقة وعادوا لنورهم، يحملون الحير.

قال عبدالله الوصفي (وهو صبي لم يتجاوز الرابعة عشر من عمره):  
- رأيت القميري من خلال شقوتي ناخذته بشفط  
كـ (أمسك) بحبه، يورم من جهة ويضمر من جهة.

وقال عمر يحيى (١٢ عاماً):  
- رأيت بطة كاتبة كلما شطط عليها مال الورم في  
أطرافه.

وقال خالد البكر (١٣ عاماً):  
- كنت أحس أنه على وشك أن ينفجر في وجهي.

وقال صالح المطري (١٤ عاماً):  
- كنت أظن أن القميري أمسك بكرتنا ونفطها على  
هذه الهيئة، ولم أكن لأعرف أنه هو إلا حين  
سمعت ذلك من أصدقائي.

وقال حسن العمري (١٥ عاماً):  
- كانت سمته كحفرة تشط كل أطرافه فلم يبق منه  
إلا الرأس الذي استعصى على الشط.

وقال جمال الوردى (١٦ عاماً):  
- لا أستطيع أن أنام فهو كالقنبلة مبرقعة في أي  
حين.

استمع الأهالي بحكايات أبنائهم بشيء من الاستخفاف، لكنهم  
حين وقفوا على رعدة القميري لم يستطيعوا النوم خشية أن

يتفجر فجأة، وكان كثير من حيرانه يتوقعون تلك فوضعوها  
أصابعهم في قلوبهم ولحفروا لاستقبال الفجر مدوّ، على أن  
يستبدلوا وضع أصابعهم على أفواههم أثناء نال سبيلهم بالحارة  
لأمن طويلاً.



مضى الليل برعب وتوحش، كان معظم رجال الحارة يلقون أمام  
جسد القميري وعلى وجوههم علامات الفزع، فلم يكن يفتورهم  
عمل شيء سوى النظر الحائرة التي لا يعرفون إلى أي حد يمكن أن  
تكون، ولم تركض الشمعة في بالهم، بل نسوا كل شيء وتعلقت  
على أصداعهم شغافة دمع كحبات لؤلؤ تزين محاجرهم، وتشجرت  
الدخوات من أفواههم كأفصان الليل.

في الأيام الأولى من محبة القميري سالت شمعة مرة من أفواه  
بعض الحافدين من (زقارة) لسانه لكنهم سرعان ما تناسوا كل  
دعائه وجلسوا أمام جسده منتكين إشفافاً وحسرة لما آل إليه، كان  
برؤدهم بعض الأمل في أن يقوم طبيب المستشفى العام بعمل  
شيء يوقف ذلك الانفراج الربيع، والتخفيف عنه، لكن الطبيب  
مكث معه بعض الوقت وأعلن عجزه حيال حالته الغريبة  
والدهشة، وإن أبدى اهتماماً به من منطلق علمي لا من أجل  
إنقاذ حياته، وقد نظروا بالكموت معه ليلتين متتاليتين كان  
خلالها يرصد التغيرات المتلاحقة لجسد القميري ويقرأ في كتب  
جليها مع مساعدته على فهم طبيعة تلك الحالة التي تحدث لأول  
مرة كما كان يؤكد الرجال الحارة الذين أعفوا يوسلون إليه  
عمل أي شيء يساعد في إنقاذ حياة القميري فكان في كل

مرة ينقسم أنه لا يمتلك من العلم شيئاً يفيد صاحبهم، وفي الليلة الثالثة صرح ولم يعد.

ولم يأسفوا على رحيله فقد تبادروا إلى نفوسهم الشك في معرفته حتى أن أبا إبراهيم الشهد أقسم على ذلك:

— هذا الطبيب لا يقتدر على علاج بكرة بل كل أطباء المستشفى العام لا يعرفون سوى توزيع الموت.

وأعاد نفسه مرة أخرى مدلاً على جهل الأطباء:

— ألا ترون كل من دخل للمستشفى لا يعود للحياة، وإن عاد، عاد بعاهة سرعان ما تضعب به الفقير؟ فلا تأسفوا على رحيله، وسوف أقدر الأمر مع العطارين فهم أكثر دراية بكل هذه الحالات.

وأسف على تجاهل رأيه حين نزع العماري واحضار حكيم هندي، ساهم في شفاء حالات ورم عديدة كما زعم الجمالي. وقد وقف الحكيم الهندي على حسد القميري وأخذ يهرز رأسه، وتسلم ببعض الكلمات غير المفهومة وهو يضع يديه على مفرق رأسه وصرح دارقاً تمسكته من غير أن يرد على أسئلة الملاحقة. هذا الموقف قوّى من حجة أبي إبراهيم الشهد الذي قلز عالياً كمن ظفر بضميمة:

— ألم أقل لكم إن هؤلاء الأطباء أشبه بالقصابين الذين توكل إليهم مهمة إغاث مزارع باسطة!!.

ولما عجز الحكماء لجأوا إلى المتأخرين بالأعشاب مستعينين بأبي إبراهيم الشهد، وقد ادعى بعضهم أن سحراً احتلقت بأنسائه ولا حل لعضلته إلا بسقيه دم شاة حيلة، وقد صبروا في هذه الزموم



غربة من دعاء شاة حبلى تسرع بها حداثان الصيرفي، تلك الدعاء لم تغير بلعومه المشهور ما بين نرقوته والتفاح مؤخرة رأسه، فكان الدم يسيل من شذقيه معرضاً أغشية أسنانه للتلف، وإذا عبر حدران بلعومه نفسه كبحوت طفا على سطح بحر هلاكي فبعلاً الحدران والوجوه الخبيثة به دعا مخلوطاً بمحاط مغنود كبحيات مطاطية أمسابها الحرق.. واستجابوا لصراخ العمدة الساحط والمكثور في آن:

- كفوا عن هذه المحاولات العظيمة وابحثوا عن وسيلة أخرى تحي الرجل بما هو فيه.

وقد كفوا عن تلك الهزلة وحملوا آنية الدم بعيداً وأصفوا يفكرون في حل آخر يوقف هذا الورم المشافي، وعندما عجزوا عن الإتيان بحل شلاب جلسوا أمامه حيارى يقشرون عبراتهم ويستجدون الصبح.

ولم يعد أمام أهل الحارة سوى انتظار النهاية المضمومة، وقد استيطروا نهايته، فقد أبدى بعضهم لزعمره من هذه الحالة وتنبؤوا موته ليربحهم مما هم فيه محبطين هذه الأسمية تحت القول: إن موته راحة له. وأصبحت عشتهم أن يتفخر فحلاً ولا يعرفوا كيف يلحون فشلاءه لتثائرة ساعة الشككين، فقد استحال إلى بالون كبير وغاصت أطرافه في تلك السمعة الشامية والتي التهمت كل أطرافه وأحالتها إلى زوائد متفخخة مشدودة توشك على الانفجار. كان آخر طرف قد د رأسه، فقد أخذ في الانتفاخ مثبهاً لآنيه وفمه وجنبه وغدا الرأس كبالون صغير كعصق بالون كبير، وفقد السيطرة على عييه اللتين جحظتا وباتتا تفران الرعب بمرورهما وتنافرهما الحاد، وتشفق فمه معزياً حنكه ذا الأسنان الصناعية وقد ضمير لسانه حتى غدا كحبة

الفسق للعضوبة، وبدأ جسده يرتفع من على السرير وبدأً وبدأً  
ويطير، فصاح أبو طالب:

- ربهوه قبل أن يهدم بطنه بالسلف (قبيث).

سخرُوا من هذا الاقتراح في البدء لكنه تحول إلى مهمة شاقة حين  
لجّد الانضاح ليلتهم حيزاً إضافياً من الغرفة، كانت أضرافه مشدودة  
كبالون نفخ أكثر من الحد المسموح به فلم تمكنهم تلك الأضراف  
من ربطه أو ملاصقتها، وفكروا في إخراجِه من الغرفة لكن جسده  
زاد تمدداً وأصبح من المستحيل إخراجُه من غير أن يفتك بدفتي  
الباب ويفجر، ولذا هذا، اقترح عمدة الحي إزالة سقف الغرفة لكن  
هذا الاقتراح لم يجد القليل إلا حين أخذ جسده ينفخ ويتمدّد  
فضاقت الغرفة وانسلّ منها الموجودون الواحد إثر الآخر حتى لم  
يعد يقدر شخص البقاء معه في الغرفة، حينها أصبح اقتراح العمدة  
ذا جدوى، فأرسلوا في طلب عيسى البنا الذي نهض بالهمة بعد أن  
أقام عليه متراساً يليه تسالط الحجارة أو الأشتاب الناجمة من إزالة  
السقف، استغرق نصب القراميس يومين متتاليين وبعد أن قشع السقف  
تماماً أزالوا تلك السقافة وربطوه بحبال ألقت بقطن وصعد أربعة  
أصبرون لاستلامه من السطح، وأثناء تسلقه القرمط الحبل الذي كان  
ممسكاً به فحلّق جسده في الفضاء وأخذ يتراقص ويعدّد كطائرة  
ورق الشطّح محيطها فأخذت تتراقص وتعدّد صوب الذي البعد.

## نبت القاع

منذ أربع سنوات لم يمر جلسته، يخل في مراحلة البحر يحدق في الأفق يتقلب ويصر ناقدين، يجلس حامداً كضارب ألفي به على شط هذا البحر ليستقل المرح والضحالك وأخبار الخواتم الموحشة.

من بعيد للمحبه كصخرة قدت على هيئة إنسان، تكوّر وبقي رأسه معلقاً في البعد. ومع الغروب تكتشف أن تلك الصخرة ما هي إلا شخص رضي أن يسمر نفسه يوماً بهذه الناحية المقفرة من شاطئ المدينة، تمره الريح ورواق البحر وأصوات النوارس المخلقة على مقربة من راحته.

ومن هناك، من الذي تبرز أمواج وأشعة وغوارب، وصيادون وأسمك، وتسقط الشمس في مناها، ولا شيء يأتي مما يروح به البالي.

يخرج من بيته مع القبولة وثمة دحرات تسكبها امرأة مسنة خلف كتفه. ففي مثل هذا الوقت تقفل الأقدام المتجهة صوب البحر، فيقتحم بحلو المكان من الصيادين والباحة وينسلل بمحاذاة البحر باتجاه الشمال ماداً خطواته بحذق عابراً قوارب الصيادين المتناثرة على مقربة من ألسنة الأمواج الرعوية وثمة أمل يلفظ بطائفه فيحضر له الفؤاد. يخشى المارة النظرات السريعة ويمرر بسرعة وانجاب، وإذا رأى شخصاً قداماً في طريقه تتعلمت خطواته ووقف كمن يريد جمع أهداف البحر النائمة على امتداد الساحل، ويسلك الطرق البعيدة عن ممشي المارة حتى إذا أصبح في مأوى من تلك العيون الضيقة والوجوه السمراء أخرج كس قمع صغيراً من حبه وأخذ ينثر حبيباته الطيور التي تملأ تلك الناحية، ولم يكن ليظن خلقه مهما كان الأمر، ولا يصل إلى مكانه هذا إلا مع الأميل حيث تتجمع طيور النوارس فيجزوها صامتاً بينما هناك تركضان في الأفق يتربص وصير ملون.

وحين يلوح الشمس تنحدر البحارها اليومية وتقر قرونها في الذي، بغض مؤخرته ويهود من حيث أتى ليتلذذ الأرقعة الضيقة في جوف الحارقة.

في البيت تستقبله بلهفة وتلمس جسده الفارغ، وبصوت محروول متلهف لم ينضب منذ خمسة وعشرين عاماً تعود لهاها القديمة:

- بشرا

فيضمها إلى صدره يرفق، ويحدها إلى موقعها الذي أصبحت

تألفه كما تألف راحته، فتشرح الكلمات في حلقها فلا تقرأ على شيء سوى الإحساس بالكلمة وتعلم بلوعة:  
- لا تبال. سيعود.

في الماضي البعيد كان صغيراً لا يعرف سرّاً لهذه الدعوى الشكينة على الدوام والتي تركت حينها مضطربين خائنين من كل شيء إلا حركتهما السلاخفة. كان يسمعها في أقصى الليل وهي تنحب، وعندما كبر قليلاً كانت تسند رأسه إلى حجرها كلما سألها عن أبيه وتضحكي له أنه سيأتي مختلفاً ويهبط عليهما ذات مساء من إحدى الفرج، ولا تنسى أن تشير لتلك الفرج المستقرة بأسقف الغرف. كان يظن أن هذه الحكاية ستقطع وينتهي أثرها حينما يكبر طائفاً أنها حكاية تدسجها لتستحلب النوم لعبيد الفتوحات على الدوام (والتي أصبحت عادة حتى عندما كبر وأصبح رجلاً ثلاثياً إذ ظل ينام مفتوح العينين). لكن تلك الحكاية لم تغطس بريلها السوات الطوال ولم تسها هذه المرأة التي اهبطت عندها من سفح الدعوى.

في أحد الأيام وبينما كان بعيد ترحيم المنزل تارت ثوبه لم يعدها منها وأقسمت أن تترك له الدار وتهيم في أرض الله إذا لم يترك تلك الفرج على حالها الأولى، تلك الفرج التي استيقظها في سقف كل غرفة من غرف المنزل، وكانت تصبح به:  
- أتيت أن أبك سيعود إلينا من خلالها؟

ولكني لا يخطبها فقد استيقظها مشرعة التريج والمطر، لما أن حمل مواسم الأمطار حتى يستحيل المنزل إلى مستطعات يتم زرعها بكل

عاد، وكان بعد صغرة في إقناعها بترح تلك المياه الراكدة بفعل  
النظر حيث تعبر على بقائها وهي لتضمين:  
- أجد فيها رائحة أمك.

فبستجيب لها وبقي مياه الأمطار راكدة دون أن يحرق على  
تضيقها حتى تتحول إلى مياه آسنة تستجلب البعوض ودويبات  
الأرض.. عندها فقط تأتي للقول له:  
- لن يأتي أبوك في هذا الموسم فانتضع هذه المياه  
الآسنة.

وفي كل عام تقضي مواسم الأمطار مختلفة علماً قديماً شاع بذاكرة  
تلك المرأة التي لم تبار من عودة زوجها الذي خرج ذات ليلة ولم  
بعد، فقد حكى لها قبل احتفائه أنه رأى نساء قوماً يخطفه ويحلق  
به في الفضاء ويهدف به في حنمة البحار النائية. وبعدها بشيلة  
واحدة وبينما كانت نائمة أحسّت بشيء يتحرك من حولها ويخرج  
سقف غرفتها لللمح زوجها معلقاً في الفضاء كطائر عملاق يخفق  
بجناحيه بشدة صوب البحر.. كانت تظن أنها تحلم فأغمضت  
عينها وواصلت نومها وعندما فتحت وجدت جثتها من سقف  
غرفتها متدحفاً ولم تجد زوجها.

وروت أنها قطعت الأرض تبحث عنه ولم تعد لدارها إلا حينما  
أخبرها شيخ بأن زوجها سيعود ذات ليلة من المكان نفسه الذي  
خرج منه وأوصاها أن تبقى بيتها مفتوحاً وأن تهين له عشاءه ليلاً  
فسألت حائماً كمن لم يأكل طوال حياته.

كانت تروي هذه الحكاية يوماً على مسامعة حتى حرم أن الخنون

اقتات عقلها وتركها عيلاً بحمله ضمن همومه اليومية، فكانت يسارها وفق ما تشتهي، وتادراً ما يظفر منها أو يبور التصرفاتها الغريبة.

كانت تدور ليلياً على تلك الفرحات وتلظر إليها لدقائق وهي تحمل شرسفاً طويلاً تنفضي به غري زوجها حينما يأتي، فقد أقسمت أنه سيأتي غريباً كما نراه يوماً في صامها، ولم تكف عن هذه العادة منذ أن تغيب زوجها عن البيت، فيما تعتذر من كثرة نومها ليلتها:

- بلح علي أن أمكث معه أطول وقت ممكن فلا تنمي  
فأنت لا تعرف أبداً، إنه صارم والويل لمن يفضله،  
وأنا أسيه ولا أريد إفضاله.

فيهر الآن كشيء محوفاً، ويركها وهي تلغى لعدم تصديقها، وقد تمسك به معاتبة:

- أنظن أن أمك قد أصابها الجنون؟ نعم أنا أقرأ ذلك  
في عينيك .. قل ولا تخف.

وعندما تجده صامداً وحياءاً تركضان في الجاهات شتى تتركه وسابتها تركض في وجهه وصوتها ينداح عيلاً متيقناً:  
- سوف يأتي كما أراء ليلياً، ساعدها سديم وتطلب  
غفري وإن تجده.

كانت في ما مضى تجمع مياه الأمطار المسكبة من فرجات غرف  
الزل في لوزن عزلية وتسقي بها أرضاً أعدتها لذلك وكلما نبتت  
نبهة ظنت أنه هو فقد أقسمت أنه سينبت كما نبتت أشجار اللوز

وسيجرح من خلف إحتداه، ليظهر إلى السماء ويعود من حيث خرج، إلا أن حبات الأمل كانت تلاحقها فما أن تبعد البينة بساقها عن الأرض قليلاً حتى تلوي وتدبل فتعجز كل محاولاتها لإعادة استقامتها، ولم تغير هذه العادة إلا حينما علمت أن العجز لن يوصلها بتلك الأرض، فلهأت إلى جعل كل غرفة من غرف المنزل مهبطاً لأن تنهض ببلرة الطوز.. كان بيتاً غرباً، أسقف متباعدة وأرض مزروعة وامرأة تدور بشرتها ليلياً تنظر من تشر عورته.

غالباً ما يتركها وهي لا تزال في ثوبها العارمة:  
- سوف يأتي كما أراء ليلياً، ساعيتها ستدم وتطلب  
عفوي ولن تجده

28

دأبت على المكوث في مقهى الشاطئ حيث يتوافد الصيادون وينتفرون في أماكن مختلفة لا حديث لهم إلا البحر ومغامراته، والبعض منهم يستغل هذا الوقت في رفق شياكه أو إصلاح قاربته الشراعي الذي مضفته رياح البحور العميقة، بينما يقف داخل المقهى مرتعاً للعب والضحكات واحتساء الشاي.. وإن كانت الغالبية تأنس للجلوس واجترار الحكايات القديمة.

لم يكن يستهويهم الصيد بالقرب من المدينة، إذ تجددهم ينطلقون جماعات باتجاه السودان أو إثيوبيا وبالقرب من تلك السواحل يرمون شباكهم وأمالهم وأغراضهم المختلفة بالشجر وينظرون ما يقد له البحر لهم.



يقولون إن أبي كان يمتلك صورةً معينة ينشط له أكسل الصيادين  
فيقر كالفنوع يجذب الشباك ويشارك الصيادين ترويد الغناء

في هذا التقى لا يجلس إلا من ارتبط بالبحر صياداً أو بحار قوارب  
أو بالقاء لسمك أو محرراً، ولم أكن لأحظى باعتراف في هذا التقى  
لو لم أكن ابن ذلك البحار الذي كان كما يقولون صياداً لم يحب  
البحر حبلاً له. فقد كان يعرف أسراراً وحياءاً وكثير منهم لا يؤمن بأن  
أبي يمكن أن يكون قد ابتلع البحر كما يتلخظ الأحقاد الرعوية والتي  
سرعان ما يملأها ويغذف بها على سطحه لتظلم وتختفيها الظلم.

ويرجعون أنه مل حياة هذه المدينة التي تستقبل الغرباء وهي نائمة،  
لأنك الغرباء الذين يحاولون بحرهم إلى مستشفيات وأحواض  
لأسماك الزينة فلا تنور لكرامة بحرهم، ولأنه بخار عتيق مل هذه  
ليونة وبعبرها صوب المحيطات حيث يكون البحر غياً.

بومياً أحلس في هذا التقى ارتشف كنزوس الشاي وأستمع لتلك  
الحكايات المحببة من مغامرات الصيادين حتى إذا دنا الغروب  
عدت إلى بيت لأجد أبي لا زال توسوس بسيرة زوجته.

منذ أيام قدم أحد الصيادين (السوادنة) فكان محل حفاوة الجميع  
حيث أحاطوا به بإجلال والتأتأت الحكايات ورائحة البحر، وأقليات  
الندان دان.

كنت على سفرة منه فكان يخالسي النظر بين الحين والآخر  
بشيء من التأمل والتفحص .. كنت ألقه بعينه الطويلة والحكومة  
على رأسه كحبل لطن متعاسك ولقد تناسفت مع ذنبه الكثيفة

لهذه المخلوطة بماء ناصع كانت عباد شديدي المنفعة  
 ثومضان يريق عاتق ولهما مقدرة على احتراق من نظران إليه  
 حتى أحسست به يتحول في خاطري، نظراته الشكرية أشعرتني  
 بالعشق فجلست بمخافة التقى، إلا أن صوت شيخ الصيادين  
 جعلني أتوقف وأستعجب له، لمركت بالجاهد كان يجلس عن  
 يمينه ذلك البحار السودني وعندما وقفت أمامهما قال له:  
 - هذا ابن الناحوة حسن المولى.

مد يده مصافحاً ومرحياً ترحيماً مبالغاً فيه، فشعرت بالفرح وبالدقة  
 المحبة فسلمت وعبدته تهادن وجهي:  
 - كيف حال أمك؟

فحرك شيخ الصيادين في جيبه مصوراً الفطر صوبه باستكبار:  
 - ألا تعرف أنه متعب يا شيخنا؟

فلم يره اهتماماً، وخرس عنه في وجهي وهو لا يزال يت ابصامته  
 الناصعة.. وبالغنى:  
 - أما زالت الوالدة تنتظره؟

انقضت وهرزت رأسي بالإيجاب فقال:  
 - لا تلعب أبداً أن أحدثك.

فأوسع لي بعض الصيادين مكاناً بينهم وجلست أنتظر بينما كان  
 يسرد بعض حكاياته مع البحر. بعد أن فرغ المجلس إلا من كبار  
 الصيادين أستاذاتهم وانحنى بي جانباً، وأخذ يلاحظني، أوصاني أولاً  
 بوالدتي ثم:

- كن رحيماً بأهلك.
- لكنها لا تقل من تردد سيرة أبي الذي مضى من زمن بعيد.

فألقى كلمته شفة ليرغ كل ما بداخلي:

- سيمود
- هل تعرف عنه شيئاً؟
- صمت صمتاً مهيئاً وإن ظلت عياه تنقر صانتي بارتياح، وبثيرة متوقدة تساطل:
- هل تريد رؤيته الآن؟

تشككت كثيراً بالرجل، وحنك الخفاوة التي منحها له الصيادون،  
فرددت بالية:

- أظنه قد مات من أمد بعيد.

ابسم البسامة مظلة ولم يعقب علي مقولتي وتناول كأس شاي فارغاً وحسب فيه ماء ورفعه إلى فمه وأخذ يشم عليه وأذناه من عيني لألح رجلاً يجلس في قارب بغزل شراعاً كمثل وانقان وقد أصابه الضمور.. كنت أحدى بدعشة، ولم أفرز إلا على صوت البحار السوداني وهو يقول:

- هذا هو أبوك.. انتظره سيمود من البحر كما ذهب إليه.. إذا لم تنتظره قلن يأتي!!

قلت متلهفاً:

- متى سيأتي!!
- هذا لي علم لا أقدر على قراءته.. ولكنه سيأتي.

وقيل أن بهم بالبحرك قال:

- إياك أن تأخر عن لقائه فسيكون أعرج إياك ساعة  
أن يصل.

ونفض مؤخرته مائلاً يده بالجماعي وحفظ عليها بوء ثم مضى  
بهب الطريق بقائه الفارعة، وقيل أن يتعد استدرا إلي موضعاً  
ومحلاً.

- عليك بالانتظار مع غروب كل شمس وإياك أن  
تختلف الموعد لأي سبب من الأسباب، وإذا تغيب  
عن الموعد فسيفنى بينكم من إحدى الفرجات حاتم  
ذو روح أميك فحذر أن تغيب وحذر أن يراك  
أحد... مفهوم.

استأذني لمصحت به:

- أين أنتظره؟

كان يطلق الكلمات من خلفه:

- من جهة نزوح نجوم الدب الصغير.

لم تشفني إجابته فانتظت راضياً خلفه فاستدار وقد بدأت على  
هفته علامة الغضب:

- لا تبغني ويكفي ما سمعت.

كانت كلماته حادة ونظراته عدائية، فاستثقت لأوامره ولم ألق به،  
وباصل سيره الخفيف بالجاء البحر بينما كان كبار الصيادين يلوحون  
بأياديهم لوداعه.

من ذلك اليوم وأنا أصرح يوماً أخطر مقدم لي.

20

تجاملت على نفسي بقدر الاستطاعة كي أنهض وألقه إلى تلك البقعة الدائبة من الشط، لكن هذا الدور الثمين منعني بالمرغم المحاولات المديطة التي قامت بها والدني لإسكات هذا الطين الذي ينمو من الداخل ويحول إلى دوار عنيف يحصف بكل كياني فلا أقوى على شيء سوى الإمساك بوسادتي ودفن رأسي بين طرفيها بينما كل شيء من حولي يمزج ويدور ويدور ويحول إلى دوامة تسبح وتطفئ وتجدني بقوة وحرف لأستفها.

كنت أجاهد لأغلب على هذا الدور ولا شيء يرمطني بالأرض إلا صوت أمي التي كانت تواسيني بصوت حاني:  
- تجامل على نفسك فقد أرفق الموجد.

أبعد عنها كثيراً، وأغرق بدواري، أغلب معه بعيداً، وأمسك بنفسي كي لا ترحل فيجذبني وينطلق بي كالإعصار وأغلب، أغلب في اللاشيء في أوقات حلامية متاعدة أسمعها، استهضني، فأجاهد وأجاهد وأغرق في دواري، أرى بحرأ عظيماً وأرى جسدي يتقاذف الموج يعضه حياً ويلفظه حياً، وأنا ألتخط وأرفع رأسي، وأمسد، أمسد، وأبعد قليلاً عن الدوائر السفلية لذلك الدور. من بعيد عاد صوتها ملحاً ويريدني الدخول الثقيلة، وينشط حياً ويذبل بأسي. أحسست بيدها لمشط شعري، ورائحة حطر ليمون غاصت من أسمعك تتفاخرت بالقرب من رأسي. أخذت أجاهد للإمساك بصوتها وكأنه حبل نجاة بينما كانت ترفي حيطان البحر وأسماعه.

فجأة تطلت الأسلاك من مصباحي وتغير صوت أبي فسمعتها  
تصبح بجون:

- هذا طائر قاقٍ يسقط عليك.. انهض.. انهض..

انهض..

وكلما حاولت النهوض خارت قواي وتوسعت دائرة الدوار فألح  
أبي يسبح باتجاه الشاطئ بصحبة فتخاطفه الأمواج وصوت يصبح:

- ساعدني.. انهض .. ساعدني.. انهض..

وتسلطه قوامة كبيرة، فأراه يتلاشى، ليعود العنيد .. كانت والدتي  
تحاول إنقاذني وكلما حاولت النهوض ازداد الدوار، فألح البحر  
بقلوب بأمرأته ويسعى في الشوارع، يدخل المنازل ويسحبني  
صوب جثة انتفخت على سطحه لأسحبها وتتلاشى سوباً في  
البحر.

## جارتنا الصغيرة

— هل ما أقوم به يُعدُّ حماقة؟

كانت أصغر مما تولعت، فهذه هي المرة الأولى التي أراها بوضوح، وعلى الأرجح أن عمرها لا يتجاوز العشرين عاماً على أبعد تقدير، وجهها جذاب بصورة لا تُمكنك من معرفة سر جاذبيتها تلك، فقط تشعر أن ثمة شيئاً غريباً يسكن بين تلك اللامع الهائلة وكأنها لوحة رسمت بيد أحد عباقرة غاتي القرن الثامن عشر.

كانت أحمل بكثير مما حدثتني زوجتي، فهي فتاة دليقة اللامع، عمرية البشور، شفها السفلى مسرعة وناضجة لجزم أن دمها سيظهر في أي لحظة، ولها عيان كاحضان المدلت أعضائها حتى تشد للأعلى فأكسبتها سحراً فائتاً، بينما كانت سحتها هائلة تشعر أن ثمة ألماً حط جمالها فاستسلمت له بخنوع.

كانت تقف في البكوة بشر غسلها، وكان من عادتي أن أترجع عند رؤية إحدى الجارات إذا جمعتا حوادث طارئة، ولم يكن هذا عفاً أو ورعاً إنما استجابة لحرف ينشأني من أن تلحق بسيرتي أقارب النسوة من أن عني طويلة وحادة، أو أن تصرخ إحداهن وبلغ زوحتي عن اتساع عيني، عندها لن تكف زوحتي عن أنبسي وتذكيري بأني أفدت على شيء عظيم وأنها لن تغفر لي وستظل تعجزني به كلما حاولت أن أكون سيد البيت. لكن هذه المرة تخلت عن تحذري أمام فتنة جاريتي الصغيرة، وأخذت أطلع إليها بشوة.

كان مقدمها إلى الحلي حدثاً نقلته النسوة بدهشة واستعزاز، ففي أول ليلة تقدمها تعلق صرخاتها ونحيبها، وكما تسمعها تصرخ باستغاثة محمومة:

- لرحمني..

وتذهب استغاثتها توقف سكان الليل من غير أن تجد أهدأ بحف استغاثتها الليلة في السامع، وهذا لا ينفي إنصات الجيران لتلك الصرخات المحمومة بكثير من التحفز والاستغراب، كنت قد استويت في مرقدي، وعاطيت زوحتي بدهشة:

- أهذا صوت العروسة الجديدة ؟

ظهر رأسها كدمية تنظر أن تنهي تلك المعزوفة الركبكية لتوقف اعتراضها التكرار أمام دهشتي القنملة. حاولت أن أعرف منها شيئاً عنها لكنها أبدت عدم معرفة سابقة بها، وبكلمات ملطخة أعزمتي أن العريس ليس صغيراً وقد سبق له الزواج مرات عديدة. كانت هذه الأخبار جرحاً لما تاملته نساء الحلي عن الساكن الجديد قلاً عن



زوجة صاحب العمارة، وقبل أن تطول استفساراتي أبدت امتعاضها من أولئك الرجال الذين يسعون لإشباع نزواتهم من غير أن يفكروا بمصير أبنائهم، ولم أحاول التعليق على ذلك الامتعاض خشية أن تنقلب ليلتنا إلى صراخ متبادل.

كان صراخاً ألقواً يند في حجرة الليل بانكسار وألم مبرحين، وإزاء هذا الاستحواذ المحموم تغافرت عيوننا من خلال البلكونات والنوافذ فلا تلمح إلا عيون بعضنا الرابضة والثرثرة بتلك الغرفة ذات الأضواء الشاحبة والمظلة بشاردة غامقة.

بدو أننا شعرنا بالحرج من تحديقنا المتبادل فالتفت عيوننا إلى داخل جدرانها واكتفينا بسماع تلك الصرخات المستعينة والتي تكتم حياءً وتشق سكون الليل أحياناً كثيرة وكأنها هاربة من فم محكم الإغلاق، وشيئاً فشيئاً أخذت تتراس تلك الصرخات وتجاور كلها بصمت.

لم أجد رغبة في النوم فنهضت من مرافدي أبحت عن علبة الدخان وتركت زوجتي تسترخي كقطعة أحدث تنلوى وتنهباً لبسط أعضائها بما يحقق لها الاستحواذ على أكبر مساحة من مرمر نوحها الخشبي، كنت أفرع غرفتنا الضيقة بخطوات متساقطة في محاولة أن لا أخطر بالسقف التي تلاء حيزاً كبيراً من جنيات الغرفة. نهياً لي أن جرس الباب يدل، أصبحت أسمع محاولاً إخماد صوت الشكيف الذي يتر برنابة يقطعه بين حين وآخر صوت أقل ضجيجاً، كانت أضواء الغرفة مظلمة فلم أتمكن من الحصول على علبة الدخان مما حثني على كسر زر الإنارة لتنهض زوجتي متأففة:

— أحب دائماً لإزعاجي.

اعتبرت بطرف لساني كطفل أدمع الاعتذار المشكور، كان صوت  
الجرس يهلي منقطعاً، أكدت هذا زوجتي بشيء من السخونة:  
- ألا تسمع الباب، ألم أنك تسمع صياح النساء فقط؟

لم أثنأ أن فصول المباحثات، فأعجبها وهي لا تزال تغمض على  
السرو، وانتهت مباشرة لأرى من الطارق، كنت أغمض نفسي:  
- من يكون هذا الزائر المزعج؟

رفعت صوتي من خلف الباب:  
- من؟  
- أنا جارك الجديد.

فتحت الباب على عجل .. كان يقف رجل خمسيني ذو جثة  
ضخمة لا تزال عاتقة بملامحه آثار فرح بكرك، واللثة منهزمة كان  
يقطع الكلمات قطعاً:  
- عذراً للإزعاج ..

أبدت عدم الاكتراث، وانتهت أنا لا تزال مستيقظين فقال على  
عجل:

- الأهل يعانون من حالة تريف فهل بإمكانك نقلنا إلى  
الستشفى  
- سلامات.  
- الله يسلمك.  
- خير.

وقف أمامي مباشرة ووجهه يطلع بالضيق من طفلي ومحاولتي

إنحام نفسي في أمر لم يود الإقتران عنده فاستدركت علي  
عجل:

- حسناً فقط أرندي ملاهي.

ودعوته للدخول لكنه امتنع ووعد بزيارة أخرى في وقت مناسب،  
نحرت إلى المداخل لأرتداء ملاهي، وتركت قباب موازداً كانت  
زوجتي قد غادرت فراشها ووقفت في الصلاة وعندما رأني بادرت  
بالاستئذان:

- من الطارق؟

- العريس.

- ماذا يريد؟

- للمستشفى.

- طبعاً ترعيت بنفسك لأداء المهمة.

- ...

- تعجبت هذه المزعزعات.

- .....

- لو كنت أنا المريضة لألاحت أنك متعب أو علي وشك

النوم ولأعبرتني علي تحمل الألم مقابل أن تستمتع  
بتزوجك.

- .....

- لماذا لا نردي؟

- ماذا أقول؟

- قل إنك مغرم برؤية النساء وإظهار شهواتك لهن.

- الذي يقف على الباب رحل وليس امرأة.

- أنت تقدم الميت

- وأنت تقدمين سوء ظنك.

انتهت مباشرة نحو علاقة اللباس، وكما على وشك أن أسمع الجيران أصواتاً لأنها ألقت بالقرب الذي كنت أرندته في الصلاة وليس هناك ثوب بديل.. واستنحت على قضيتي اللطيفة بأنها دائماً ما تنهض معي وتقوم بكلي ثيابي قبل مغادرتي للعمل وذلك أثناء تناولتي لوجبة الإفطار، واحتضاراً لموالب طويل فقد انتهت إلى خزنة اللباس وأرندت ثوباً مغريباً وهمت بالخروج، فأصكت بي:

- تريد أن تفضحتي؟

وأصرت على أن تقوم بكلي ثوب آخر وأقصمت أنها ستخرج مهمة لكي قبل أن أخرج من الحمام، فأصبرت على الخروج بالرغم من تلك الكلمات التي قلقتها على مسامعي:

- أنت دائماً تسمي لقضيتي حين تخرج بلباب لا تليق برجل متزوج لماذا يقول الناس عتي؟ لا أهتم بهذا.

عندما خرجت لم يكن جاري في مكانه، فنزلت من سلم الفرج وانتظرت بجوار سيارتي بعد أن أدركت محركها، لكنه لم يظهر. وفكرت أن أقوم باستدعائه، وبعد انتظار طويل صعدت إلى شقته وقرعت الجرس وانتظرت وأعدت المحاولة وانتظرت.. عندما أيقنت أن جاري لم ينتظرنني أو أنه سمع مجادلتي أنا وزوجتي فقرر أن يستعين بشخص آخر، فعدت إلى البيت لأحد زوجتي قد رايست نفسها لحوض شجار استنبته من حكايات قديمة كانت مستقرة وفي حالة عذائية تدرت على شها في مثل هذه الحالات، وبدأنا الشجار الذي انتهى بأن حملت وسادني ولغطاتي ونمت في الغرفة المجاورة بينما كان صوتها يلحن حنظها العائر.

في صباح ذلك اليوم انتشر حبر تلك الفتاة بين النساء وبدوا أن زوجة عبدالله حين من قام بشرب الخمر.. وظل الحبر خارقاً في أفواه النساء لمدة طويلة حتى أن الفتيات أنفسهم أن لا يتزوجن فقد كان الحبر كغليلاً يجعلهن يفضلن العروسة على الموت تحت نور لاهت.

في بادئ الأمر كان حبر العروسة غامضاً حيث قيل إن بكارتها استعصت على زوجها مما حملته على وكثرها بقوة جعلت الدم يتدفق بغزارة، وعلفت النساء على هذه الحكاية بأن قيات هذا الزمان أرق من ورق السوليفان، لكن هؤلاء النساء سحن هذا التعليق واستبدلته بالثوم على رجال هذا الزمان الذين يبحثون عن البكور ليدفعوهن فحولة رغبة لا تقيمها إلا أصابع اليد.

ومع تدفق النسوة على بيت العروسة عرخت أخبار مدفونة كثيرة.. فروت ليلى - جارتها الملاصقة - أنه استبدل عضوه بإبهامه، وأخرى - زوجة من قام بقله إلى المستشفى - روت أنه انتفخ على السكينة كحيوان كاسر فخر القاتين وجعل مجراهما واحداً، وهذا يفسر لي قول زوجتي - فيما بعد بأنها: - فتاة تسير كالضباع.

لا أنوي لهذا أصبحت جارتنا الصغيرة محل اعتنابي؟ وقد حاولت في بادئ الأمر أن أراها وزلات هذه الرغبة إلحاحاً كلما سمعت زوجتي تروي لي شيئاً مما سمعته في مجلس النساء عن هذه العروس.. وتحولت مع الأيام إلى جنود يومي نتحدث فيه (أقروها) للحدث عنها من حيث لا ندري، فروت أنها ابنة لأحد ضحفاء النفوس وقد باعها لهذا السن مقابل عمارة. وروت أن هذه الفتاة على علاقة بشاب لم ينقطع عنها حتى بعد الزواج حيث تناقلت

السرة - أيضاً - أنه يقف يوماً أمام منزلها كلما غادر زوجها البيت للعمل، ورويت عن جاريتها أن العروسة زميلة لإحدى بنات العريس وأنها كانت تناديه بقلب (يا عم) حين تقصر الزيارة إليه.

اليوم رأيتها، كانت أجمل بكثير مما حدثتني زوجتي. شعرت بوجودي وأنا أحرق في وجهها بالنهار فرمقني بنصف نظرة وأطلقت إسماع خفيفاً، فشحمت وهست:

- مساء الخير.

تطلعت صوري بدلال وحملت غسبلها والسحبت إلى داخل شقتها، وهي تطلع صوري، ويخبث غمزتها بعيني، فالتسعت إسماعها وحركت يدها مشيرة بالانتظار.

## .. من أي الجهات تأتي؟

وقفت على جسامة، كان مدداً باستسلام، مغمض العينين والشم، يدها مضمومتان على صدره ودمه الذي كان يغلي باستمرار برد في أوردته وأحال لون بشرته الصفراء الصافية إلى زرقاة شاحبة.

دأب على الحضور إلى القهى لا يخب عن جلسته إلا عندما يحل ضيفاً على مستشفى (شمار)، يجلس خلف شيلته ينفث الدخان بكثافة وهو ينظر وساومه بصوت مسموم. لم يكن يجالسه أحد، يظل في مكانه لساعات طوال، لا يقترب منه إلا المادل أثناء تغير حجر الشيشة أو تزويده براد شاي منعش. هيئته رثة، ثلث الفقرز فراصة عرقه غفور والتمسك بالألف كجثة بس ميت.. وعندما أحقره لإيمانه موعباً إياه بدلق الماء على جسده برد:

.. راحتنا بعصاة أخرى لا تعرفها إلا الزوجات وأنا

ليس لذي امرأة أسكن إليها فما الذي يدفعني  
للتخلص من نفسي؟

وقف القسطل على رأسه بحسب إياه صباً وبخيلته بين مفاصله  
وبذلك محاشيه بالسدره حفل عندما رأى حاله، وتكلم:  
- أكاد أقسم أنه لم يتصل من أمد بعيد.

رد أحد جيرانه متصفاً:

- هذه نهاية أمثاله، فهو لا يلبث وإن غاب سارع إلى  
العودة للبيوت بشراب مضروب.

تعلقت صوبه بعتاب، وكمن أحسن بضعاً ففاجئ سارع بالاستغفار:  
- استغفر الله، اللهم ارحمنا برحمتك.

فرد جار آخر بترحم:

- رحمه الله، لم يكن معاً. كان عقله بعيداً عنه وهذا  
من المعتوقين.

يسدو أن القسطل ندم على مقولته، فأعاد حسب إياه وتذليله وهو  
يدع بأدعية لا نسمع منها إلا أقمتها.

⋮

لم يكن يكره في حياته إلا اثنين: الله والصدقات الكهربائية.

وكرهه للماء أمر عجيب بدأ معه من مرافقته، فما أن يتصل حتى



تنتشر على مساحات جلده حبات مقسمة، فيظل يهرشها حتى يفتقر الدم من تحت أظفاره، ويسدل على جسده أغطية ثقيلة تعبد إليه التلف، ففي أيام الشتاء لا يهرب الماء إليه.

في غرفه شبه الظلمة احتفظ بحردل ملأه بالتراب يهشم به في أيام الجمع والتي حرّس على أركانها في المساجد البعيدة. يخرج قبل الأذان الأول ويظل يحبر الأحياء حتى يصل إلى جامع الفلاح ويدخل للمسجد ويظل في سجود وركوع إلى أن تقام الصلاة، فلم يكن يستمع للخطبة ويظل يحبش باليكاء أثناء فراق الإمام، وبعد أن يخرج ينسى المساجد حتى الجمعة التالية، كان يردد دائماً:

— من الجمعة للجمعة كفارة لما بينهما، ولما لا تؤذي أحداً.

لم أراه حريصاً على شيء كحرمه على أداء صلاة الجمعة، ليستها يذلل أواني المسرة، ويهشم ويقرأ القرآن ويضع عطره على آيات كثيرة، وينام مبكراً، وقبل حلول الوقت يخطط راحته في حردل التراب المتجاوز لمركله ويمر يديه على وجهه وأظفاره، ويتجه للمسجد غلياً لا يعود لمسجد صلى به —

دائماً ما يكون محل اهتمام الآخرين، فركوعه وسجوده وبكواه تثير الانتباه، ويظل الصليون يحدقون به باسترحام واستنكار وبفضول، ربما يظل غلياً عنهم في أداء طقوس التي سكن إليها واضمأنت بها حوائجه، وما أن تنتهي الصلاة حتى يلتفت منه كثير من الصليين ويدسون يده تقودا وبخافونه وهو غارق في ذهوله.

في البدء شتم ولعن وصاح:  
- لست مسكيناً!

فلم يكثر بصباحه أحد يمدون له صدقاتهم، ويخافونه داعين له بالشغاف ثم ارتضى بهذه الهبات يغيب خاطر إلا وحدها وسيلة حيلة تحفظه من الاستدانة والظلل ليلتجئ العرق.

كان يروي لي بعض مراقبه وهو يضحك بحق ويردد:  
- لو يعرفون أن صدقاتهم تصبح سبقات في يدي لما  
أقدموا على منحي قرشاً واحداً. إن هؤلاء يظنون  
الرحمة بصدقاتهم وأنا أطلب بها السبقات حين  
أشتري بها ما يخرجن من دنياهم.

كان مغموراً طوال الوقت وإذا أفاق من وساوسه لم يلق من  
خمسره بحسب الشوارع والأرقاء بهذا بصوت مرتلح ودائماً  
يردد:  
- يا ربح قلبي من أي الجهات تعود؟

ذات حصة رآه أحد الأطباء فأشفق عليه، وأغرب منه مسلماً ونقده  
مائة ريال، ارتبك كثيراً حين رآها بيده، ومن شدة فرحة اطلع  
سروره وأقاربه في الهواء مراراً كانت هذه بداية الشك في قواه  
العقلية، وعنفها بصرفات أخرى عندما أخذ بهذا الكلام مسكوت  
عنه، وترجمت به جهون كثيرة قادته في آخر مظالمها إلى مستشفى  
الأعراض العقلية.

ما زال لشغل يعصب اليه صبيًا، ويعلم بالأدعية بينما كان حارًا  
لتراجدان يستعجلانه بطيق:  
- قرب وقت الصلاة.

لما بنسب من أسفل السرير الذي استقر عليه وحسده أرق  
ونفجت عروقه الضامرة وكأنها حيال لم تجدل جيداً.

وما الذي حدث الآن؟ ما بال جلده لا يستجيب لهذا الله الجرد  
الشكيب على جلده ويطلب كسابق عهده؟ يا لهذه النفس تريد  
وتريد وتغني دون أن تحقق ما تريد كانت نفسه لهمة تريد أن  
تعرف ما لا يعرف. ألمعتة خلال سنوات طويلة وفي لحظة غامضة  
استلكت من بين ضلوعه وتركة اللدود والتراب بمضغاته باشتهاء. ها  
هو كبيت غلاره أهله تاركين كل أماته فأخذ يستقبل الريح  
والهيمت بوحشة واستسلام. ها هو مسجى لم يتغير فيه شيء  
وكانه استرخى للمحطات ليربح رأسه من وساوسه التي لا تنام،  
صامت لا يقوى على شيء. أين ذلك الصخب الذي كان يركه  
خلفه؟ .. من يصدق أن هذا الكائن كان قبل لحظات ينسق العالم  
كما يشتهي، ويرى أن الكون يخضع لإرادته، كان هذا قبل قليل  
.. قبل قليل فقط. ها هو يدخل الآن في فتوة جديدة من الزمن  
الامتاعي، في وحود ثم يأتي أحد ليخبرنا عن ماعته).

كانت وفاته مفاجئة. لم يخضر بهال أحد أن هذا الجسد الفارع  
سيسلط فجأة ويتوقف قلبه عن الخلفان وستوقف كل تلك  
العصارات العنيفة التي تعترك بداخله. فجأة سلط وانطوت معه  
أفكاره المجرنة التي قادته مراراً إلى مستشفى «شهار» ليقضي شهراً  
هناك ويحود أكثر تصميماً على أفكاره.

استسلم جسده للمضغات الغشلى وأخذ يترجرج يده تحت تلك اليد الحازمة. وضع القليل القطن في فمه وأذنيه واستصعب عليه فتح فمه، كان مطبقاً فكبه وكأنه كان يلغضم من اسفل روجه، فحصلت أورادعه وانضقت أسنانه على بعضها بفوق، وقد أصبر الغشلى على فتح فمه بأي طريقة كانت ليضع القطن فوق لسانه، وعندما عجز طلب ملقعة وأخذ يحاول بطرق عدة فتح ذلك القم المطبق. وعندما استعصى عليه الأمر، استغفر ربه، وكسر ثيابه وأدخل عجز الملقعة من تحتها وضغط على طرف الملقعة فسمعنا صريراً كصرير الأبواب المهملة. وكلما تراعى ضغطه عاد القم لأطباقه، وعندما عجز عن فتح ذلك القم تمفرده صاح يستدعنا لمساعدته فألصقنا بفكه الأسفل بينما ظل يرفع بالملقعة فبكه العلوي لينفتح فمه قليلاً، استبشر الغشلى وردد بحزم:

- يكفي هذا.

وسل قطعة القطن بين فكه وحشرها حشراً.

حضر الغشلى أنا والغشلى والثان من حيراته، وبعد انتهاء الغشلى انسحبوا وبقيت معه، كان مجرد لحم لف بشاش، لا أدرى لماذا تخيلته عروفاً لم استقدانه من مناطق بعيدة وظلت البرودة محافظة على ذلك اللحم من العفن. فجاءت سرى بجالي أن جسده أخذ في التحلل وأن رائحة عفنة أخذت تجوب فضاء الغرفة، وأحسست أنني غير قادر على تحمل تلك الرائحة، وخوفاً من أن يتحلل تحت الكيف ووجهته باتجاهه. كنت أراه يتحلل أمامي وكلما حاولت أن أنشرد هذه الخيالات ألغى بضحك من رعي ويواصل تحلله وهو يضحك كعادته وصدى صوته يتردد:

- كل شيء عائد فلا ترتعب.

استعدت بالثمة وشاورت مصحفاً قريباً - وضع فوق كتبه المصطرة في داخل تلك الغرفة ذات الأثاث الرث - كان قد ترك عليه خطوطاً كثيرة في مواقع مختلفة، فتحتهم وقرأت وقرأت، وقرأت. شعرت بالارتقاء وتسللت الضمائية لداخلتي، وكنت لا أزال عاتقاً من وسواس نيت بمخيلتي فجأة.



عاش حياة غريبة، وفي كل منعطفتها كان يؤمن بنفسه، يؤمن بالعقل وأن هذا العقل له وسائل تنقله من مراحل الفناء إلى التجدد والتشكيل، كان يرفض فكرة التنازع ويضحك بعين عندما يمازحني: تصور أن تعود بصورة حمراء ساهتها لن تغضب إذا نادى عليك أي شخص بهذا الاسم، كان دائماً ما يكرر:

- ثمة طريقة مثلى للعودة، إن الريح تطف الكرة الأرضية وتعود ولا يستطيع أحد أن يحزم أنها ليست الريح نفسها التي عرنا قبل سنة أو أيام.

سارت جنازة سريعة صاخبة حيث اعطف حول الصلاة عليه فقد أقسم المؤمن أن أمثال هذا يدحسون النار من أوسع الأبواب، وكان الإمام متحفظاً وردد:

- إن الله يعلم السر وأخفى.

لصليون خرجوا ورفضوا أداء صلاة الميت، ولم يفلح الصوت في تذكرهم أنه محزون وقد قال أحدهم: إذا كان محزوناً فهو معنى من كل الواحيات، حتى نحن نلعون من الصلاة عليه.

عندما كثر الإمام لصلاة الميت لم يكن واقفاً في الصلاة سوى الخطيب وأنا وسائق السيارة التي منقلبه للمقبرة ورجل محوز لم يستطع النهوض فبقي لأداء الصلاة على أمل أن تجد أيدينا له ونهضه فيما بعد.

كانت صلاة قصيرة وسريعة وبعلها تعاوننا ثلاثا على حمل نعشه إلى خارج المسجد وإركابه سيارة النقل الصغيرة التي كانت تنفزه. وسبنا الرجل المسن فلم يساعد في النهوض.

انظفت السيارة بينما ظننت أنا والسائق لنبادل الآراء: في أي تقابر تدفنه??



دائماً ما نجلس في المقهى ننثر أحزانتنا وفي أحيان كثيرة تبادل الكلمات البذيئة تعليقاً على ما يحدث.

حياء صعلكة تبدأ وتنتهي بالقاعي القيلة، في النهار يشعر بالاختناق فينام في غرفته الرثة، فإذا استيقظ قبل الغروب يخرج ليحجج الشوارع والأرقاء، يجالس المسنين ويسمع حكاياتهم وفي أحيان كثيرة يلعب للورقين ويحلل نقرأ ونقرأ ليعود أكثر وحشية ورفضاً.

نتلافي في المقهى بدون سابق موعد فأجده يسجل حتى تشعر أنه انتهى لئلا، وضجاء يهيق من سحله وينظر إلني باستسامة مفتوحة للمدى:

.. الحياة موت دائري يا صاحبي..

ودون أن ينتظر جواباً يردد:

- إنها تتجدد في صورة ما وفي زمن ما.

في أحيان كثيرة أخرج عن فهمه فأركبه بهذا بأسطه، وأضل صاحباً  
أعذب دعان لشبهة أطلع إليه وهو يصاحد ثم يلاشي فيصبح:

- انظر، دعان لا ينتهي، ينشطر ويتحول إلى دوائر

تتمدد في الفضاء كل الخلاء دوائر لا تنتهي ونحن

أجزاء تنشطر وتوجد بصورة أخرى.

عندما وجدني صاحباً ضحكك حتى لعبت كل أطرافه... وصمت  
فجأة وأخذ يجر دعائاً كثيفاً.

بدأت صداقتنا منذ زمن بعيد، منذ أن كنا طلاباً بالمرحلة الثانوية،  
نتحرك سوياً ونقتعد كرسين متجاورين، في يوم قال مفرس التاريخ:  
- التاريخ عهد نفسه.

فرجع هذه سائلاً:

- هل يعود الزمن أم الأشطام؟

فرد للمفرس: بل الظروف.

ومذ ذلك اليوم أصيب بلوثة وأصبح يقرأ عن الزمن، وعندما سمع أن  
السحرة ينقلون إلى أماكن مختلفة في اللحظة نفسها تعلم السحرة،  
وضاع عقله بين تلك الأوراق الصفراء ولم يخرج منها إلا اللطافي.

عندما وقفت على بوابة القبرة كان حشائه يتحرك بين يدي نغم  
 ترفعوا بقله إلى داخل القبرة، دم الشفق يسبح على جانب الغروب  
 فيملأ المكان وحشة إنسانية، وصمت فاطر تحركه مخلوف تلك  
 القصور المراسية في خطوط متوازية وبعض الشجيرات التي تحت على  
 بعض القصور بعشوائية، وريح باردة تحرق العظام عمود وتطلق هاربة  
 من فوق الأسوار للطفقة.

تحرك القطار حاملاً مسحاته صوب صف مرقم برقم ١٢، كان ثمة  
 قبر ينتظر شخصاً ما ليطلق عليه دقيه ويخيه في باطنه، عبط القبار  
 في داخل القبر وعدة له بالحقة، تناولها برود وصاح بي:  
 - انزل لمعوضي.

نسارع وجيب قلبي، وأحسست بالاحتكاك وأني سأقبر معه، دفني  
 من حضرة الدفن فنزلت على مضض، أستاذته إلى يمينه وأحطت  
 أزبقة كلته وأستاذته بتراب متسبح، فسر دهن من تلك التربة  
 وأقشعت طبقة أبات نغلاً محمراً ذا أرجل طويلة وحركة سريعة،  
 ارتقي ساعدي بهمة فمشعرت بالرعب، نفضته، وصعدت على  
 عجل، وألقى عليه القبر.

- أخيراً انتهى هذا الرقص لكل شيء؟

كان يحاولوا القبار ينظرونني وعندما وقفت في مواجهتهم اصطفوا  
 الحزن والنظروا أن أمد يدي لمحيي، فمضجهم ظهري وخرجت من  
 القبرة حاتاً الحصى وديب السبل يرتقي مرقلي.

كنت حزناً حزناً غريباً، ليس على رحيله وإنما الأمر كان يعجز  
 بالبال دون أن أقف عليه بالتحديد، لم أستطع الذهاب لأي مكان



فعدت إلى البيت. كان يقف أمام أعلامي بكل الشفافية وثمة كلمات تتراكض من شفاعته صوب قلبي:  
- الحياة دائرية يا صاحبي.

عندما بدأت أكتب القصة كان نزلاً في مستشفى «شماره» وبدأت صوري تنزل ملاصقة للنقص التي أكتبها، ذات ليلة وحده يقف على رأسي ساعداً:  
- لقد أصبحت كاتباً.

نهضت وحضنته بقوة، كانت هيئته تنفي أنه لشئ قفلته بوابة الأمراض العقلية، وقف متزناً حلقاً على الضحككات بلائس بسيطة مرتبة. أيقنت أن وسامه قد عمدت، وقبل أن أمد يدي بعيداً، جلس بجوارني يحضن كفي مرهناً:

- إن أفعال قصصك أسماء في زمن القراءة وكذلك

نحن أسماء بصورة ما في ظرف آخر، كلها أجزاء لا

تلاشي وتواجه بصور شتى.

أحسست بالعطف عليه وحاولت أن أبعده عن وسامه فتبسم بحزن:

- أنت مثلهم نظن أنني مجنون.



أبث على زيارة قبره بين الحين والآخر، فكلمنا قلبي ظروف الحياة إلى هذه الناحية دخلت إلى القبرة ومررت بقبره وحسنت للحظات، وفي كل مرة أصرح أكثر فرحاً مما مضى، ففي كل زيارة

أحسن بالنيل الأحمر يرتقي ساعدي

لم أكف عن زيارته إلا بعد حين، ففني إحدى المرات جثث  
فوجدت قبره مكتشفاً وعلمت أن القبر بهباً لاستقبال ضيف  
جديد بعد أن أصبح نزيله رحيماً، بعدها أصبح يزور مخبئي في  
كل حين.

≈

اشتهرت في القهي بالزبل الذي لا يحالسه إلا الورى والحكايات،  
فما أن أصل إلى مكاني المحدد حتى يقبل التناول بطلباتي التي  
حفظتها من كثرة ترددي إليها، يضمها أمامي بعصمت ويغادرني  
دون أن تبادل التحيات.

اليوم لم أكن رافياً في القراءة أو الكتابة فأخذت حينئذ تنجس بين  
وجوه نزلاء القهي، كانت وجوهاً طارفة في بحور متعددة، وجوهاً  
لا تقرأ فيها سوى الشعب وهي أفضل الأحوال الغياب، الغياب عن  
كل شيء.

فجئت لفتته في المكان نفسه الذي ألف الدخول منه وبالمركبات  
نفسها ولكنه أكثر أناقة ونهياً فتمت عيني على التماخض وركض  
خوادي كما لم يركض من قبل، عبرني بهدوء بعد أن ألقى شحنة  
قصيرة تهلت بمجموعة كانت تجاورني وتصارعوا به:  
- لقد تأخرت كثيراً.

اتسم التماخض المفردة لحدث ثبته الكسورة وهو يتسم ويتناول لي

شبهة تعدد هب، وأخذ بجر دعاءاً كثيراً ويصنفه في الهراء، فحركت بالجاهل، وسلمت عليه. كانت هناك تركعتان في وجهي باستفسار كمن لا يعرفني. همس ثلثة:

- هل من حاجة أنظيها لك؟

أحسست بشيء يجذبني إلى الأسفل، رددت بآنية:

- كلنا أجزاء لا تخلص وإنما تتوحد بصور شيء.

فانطلقت ضحكات المرحودين، وخرجت من القهسى تاركاً  
شخصي وأوراقتي وثلة ضحكات مستهجة تبعني.



قصص نيئة



## حين تنبت الصرخة

جميعهم حوله

سار بخيلاء، ويده درع نحاسي صلب ناعم للشمس يتهي بحواف  
حزونة متعبة، وقاعدة من القطيف الأخضر.

زوجه تنسم في وجهه كلما توقفت وألقى ضوء عيبه على وجهها  
البهناوي ذي التلامح الدقيقة المتألفة المهزومة بتجاعيد قطعت  
أسفل شفتيها، وتركبت إصبعاتها مسترخية كقصص في شجرة مائلة.  
زفه أباه وهو يسير مختالاً بينهم، يتنقل بهم من غرفة إلى أخرى،  
كانت غرفة الاستقبال هي آخر الغرف، اعقاد البديهة التي تجعل  
الطلاب وجهاز الرصد، محمداً:

- أفضل أن يكون هذا.

..... -

فَرَزَت البنت الصغرى وهبته بأن تلقى جملة إلا أن نظرة أمها  
أجمعتها فاستكانت بمكانها تبادل النظرات المترتبة مع إبحرتها.

في داخله استحسن ذلك الغمت الطيب من قبل أمه،

واستكمل:

- ها سراء كل من يزورنا وسهرغون من هو أبوكم.

استعمل ابنه البكر للتبرخ تلك التربة من محتوياتها المصوبة قولها،  
ووضع الذراع هناك مستحياً لأوامر أمه الموجهة:  
- لا تضعه في الأسفل... يبدو أنك لست فخوراً به.

وجذب ابنه بخصب مقفل ووضع الذراع في أعلى التربة.

ولف أمه متأملاً موضعه، واتعدت عليه قليلاً قليلاً، جلس في أماكن  
مختلفة من المجلس يتطلع إلى الذراع من زوايا متعددة ويقترب من كل  
جلسة ليعدل وضع الذراع ويعود إلى مكانه يختصص النظرات لوقعه  
الجديد ويخاطب أمه بصورة آلية من غير أن يتنظر جواباً محدداً:  
- هه هكذا أحسن، أليس كذلك؟

ومع كل مهمة كانت رؤوسهم تهتز مستحسنة الرفع الذي اختاره  
للذراع، صاح مستكراً:

- كل الأماكن هزيم لها رؤوسكم... لا أحد يركن  
لأراء الهائزين وقابهم على الدوام.

لم يعلق أحد منهم على مقولته، وإن أبدت زوجته شفقة على أبنائها



الذين حاروا في ما يفعلون، وإن كان أصغرهم أقرب للتصدد على تلك اللحظة الواحدة، فسمرت عليها به كي لا يالخت أياه بكلمة تعكر خاطره.

أظمر غضبه، واحتضن ليله الكبرى، مداعباً شعرها بحنان، بينما كانت عياد تهبان كبرياح وديعة على تلك الوجوه المرفقة حوله. أحس أن أهل بيته المحتممين، ينتظرون كلمة ما، تطلع فيهم للحظات وأعاد نظره للفرع الذي استقر على البترة كمثل مقدس وزفر متحسراً على أيام مضت. في البدء كان صوته متهدجاً ثم اعتلى أسماخهم بنغمة شجية، وذكريات كانت تهرب من لسانه كلما حاول الإسك بها.. الشيء الوحيد الذي استطاع أن يلهج به بحزم تلك الجلسة الطويلة التي تفرغت لحكايات ومراجعات ودروس رغب أن يستوعبها أبناؤه:

أربعون عاماً كنت خلالها مثال الموظف الشغط أؤدي عملي بخبرة. كنت أحسن الإصغاء لرواياتي وألفظ مقترحاتهم كصاعقة لا تخطئ التوقيت.. أربعون عاماً مضت كالخلم.

أحس أنه وقع في شرك الكلمات فعاد للحدث مستقر كآ:  
- لم أكن أعز رأسي على الدوام ولكنني كنت ألقظ ما  
أؤمر به حتى لو لم يكن موافقاً لهواي، فالوظيفة  
ليست رأياً شخصياً بل نظام وقوانين ..

يسمو أنه مل من الكلام، أو من تراشق النظرات الجاردة المحتيفة خلف أظفار رافقت بإبرة الصمت، حدى بالفرع ملأً وعاطب زوجته بنبرة وديعة:

- إنه صديق كأيام عيني، عليك أن تسحب دماً  
ليظل صغيراً.

ومن غير أن تنظر قفوت إلى مكان الفرع ومسحله بشوبها فثار  
فجأة:

- ثوبك مزركش سيخدش هذا الشيطان، ألا تعرفين  
كيف تحزين للهام المركة إليك وإفان؟

اعتلت ابتسامتها، وارتدت لداعلها، ثم انسحبت من مكانها لتعود  
إلى حوارها من غير أن تنبس بكلمة. شعر بالضيق بعفريه، فواصل  
تهيجها دون أن يرد عليه أحد.

هذه المرة أحس أن الصمت الذي حوله مقبرة تتلذذ أن يدعها  
بصمت ورازي جلالها.

~

نراه حذلاً، إلا أن خاطراً يتغلغل بأعناقك وبشي أن فرحة بشوبها  
كلور.

~

### بعد يوم من استلام الفرع

لم يكن معه أحد، جلس في مواجهة الفرع، أحد يقرأ تلك  
الكلمات المنقوشة بماه النعب والكوبة يحط الثلث:

### شهادة شكر وتقدير

بكل الفخر والاعتزاز نتقدم الوزارة بشكر الوصف محمد علي بن يوسف علي أداء عمله بكل تفان وإخلاص، وتتمنى له ألياً سعادة بحوار أسرته بعد أن قضى زمناً طويلاً من العمل الدائب والمخلص ببناء. كان خلال فترة عمله محل الثقة والتقدير من قبل رؤسائه الذين عمل معهم.

المدير العام

عمر عبدالرحمن البكر

أعاد قراءة تلك الكلمات المصنوعة على الفرع عدة مرات، كان يتوقف عند كل كلمة ويأثوه بحزن، لما فيه عواظره في تداخيات متلاحقة.. وأخذت تنعبد به عن تلك الكلمات.

٢٥

### أربعون عاماً انتهت بلوحة نحاسية

من كتب هذه اللوحة؟ هل كان فرحاً وهو يخط هذه الكلمات لم لم نقلها عن ورقة ممزقة نقلها بصورة آلية من غير أن يعرف صاحبها، أو يعرف كم تكبد من أسرار وأفراح طوال سنوات العمل التي أنضجها بين أوراق وحفلات الأرشيف؟

هي شهادة براعة لمن أخرجك من السجالي، هي رجفة فرح غامر للقلب جلس بالشرب الشطرنج لساعات طوال تجري في عروق لحظات التوتر والفرح، واستطاع بمهارة أن يخرج قطعة أخرى من القطع البائسة والتي عليها أن تغادر مكانها من غير أن يشعر

بها المتناقصون .. أنت الآن قطعة خارج اللعبة مغنوقاً كيفما اتفق، سيقى على الهامش، ربما تستعجل انتهاء اللعبة لكني بعم حيلتك مع القطع المنتصرة والهزيمة تعود بداخل صندوق مغلق مظلم لحلم يد لفلك مرة أخرى، تحت بكاءك بك ولحوب بك أرضية اللعبة.. وفي لحظة تفرغ رأسك بنشوة الظاهرين لتسقط في حوز قطع سبقتك. تنكفن على أي جنب لا يهم .. نحن قطع نسير للأمام فقط للأمام وفي أحيان كثيرة نكون حركتنا طعماً للاستدراج ونحن ننهي لا يأبه بنا أحد حتى لو أنك لثقبون للقوط الكبير.

أرجون عاداً يقابلها فرع نحاسي وكلمات باردة، وأمينات كسيحة. نحن قطع على أي حال، قطع شطرنج، لو قطع حين تركت داخل صندوق لقرضها فأر مهمته الأساسية الإحهاز على ورماد.

كما مجموعة كبيرة من النمل التي طرخوا بها خراج اللعبة، ولكني لبدو ذوي قيمة فقد تم إقامة هذا الحقل، ولم يحط بالكريم سوى عدد محدود للغاية قررت الوزارة منحهم دروعاً تذكارية ومبلغاً مالياً لكفالتهم خلال عملهم الطويل، بينما ظلت البقية الباقية مجرد أسماء وأرقام تخلصت منهم الوزارة بلوغهم السن التقاعدية، وإن كنت قد سمعت من وكيل الوزارة حديثاً استرقت أثناء سري علقه في إحدى الثرات التي تواجدت بها في الخطابيل الذي يوجد فيه مكتبه وكان تواجدي هناك لإنهاء أوراق التقاعد. سمعته يقول:

مراقبه:

.. لقد لوات الوزارة تكريم النجباء من أبنائها بينما الحاملون والتابطة بكتفهم لحمل الوزارة لهم كل هذه

المسبوبات المطول وكان الأجدر بها علي فيلنهم من  
زمن طويل، ولو كنت وزيراً لشعبتهم من استلام  
الراتب التقاعدي.

هذا القول حير عاظمي، وهون علي تلك المشاعر الطائفة التي  
لازحتني منذ أن عرفت بإنهاء خدمتي، فتكرمي واسمعتني من بين  
تلك الأعداد الغفيرة للتكريم هذا اعتراف بتجني الرضا بقية العصر.

كانت زوجتي أكثر فرحاً مني بهذا التكريم فقد جهزني منذ وقت  
مبكر، وأحسنّت قباقتي كما يليق بعريس مستقبل حياة جديدة،  
ورشت العطور علي هامتي وألباسي، ودارت بمسخرتها وهي تطلق  
الترغيب ولم تستجب لزوجي:

- يا مرة... أنا ذاهب لحفل التقاعد وليس لاستلام منصب  
الوزير.

- ومن يكون الوزير... أنت أفضل من حالة وزير.

وودعتني، وعجاها لشعاع فرح بكرو:

- عد سريعاً... فالأيام القادمة أنت لي لوحدي.

هناك، في قاعة الحفل استقبلتنا في التقدمة، كانت معظم الأقواء  
تتسبم، مؤجلة لحظة الوجوم والوداع إلى ما بعد الانتهاء من فقرات  
الحفل، كلما كنا نرتدي السياطر (الثوب والغفرة) قلّة منا التقفوا  
بالمشايخ، وقد وجدت نفسي في حالة مرتبكة بذلك المشايخ الذي  
أمرجه زوجتي من دولابها وهي تمضاضك:

- أذكر هذا المشايخ؟... إنه المشايخ نفسه الذي ليست

في ليلة عرسنا.

تلفت يميناً ويساراً .. كل المتقاعدين يخفون شيئاً من الحرارة،  
تلمحات الفرج لا يمكن لها أن تظهر هكذا..

حينما شد المدير العام على يدي كانت تظفر من عيني دموعاً مالحه،  
دموعاً بحسب ذلك الجهد الذي أمضيه داخل غرف الأرشيف، كنت  
أقننى أن أقول له:  
- أبني، مازلت قادراً على العمل.

كنت أقننى ذلك لولا إياه قدوم نهض فجأة ليمنع سقوط تاريخ  
طويل من الأنفة ورثتها عن مزارع عتيق، كان منشغلاً بقدر  
إسماحته والتي حاول جاهداً أن يبرزها بوضوح لكي تخلصها تلك  
الكاميرات الشابة لبرنامج الحفل. شد على يدي وأحلق إيماءته،  
وحين غابته الكاميرا استعجل لإراحتي من أمامه.

كنت أول من نهض، فبمجرد أن ذكر اسمي الأول حتى قلزت  
مستجلاً، وكذت أن أتعثر في طريقي حينما مضت خطواتي  
للمريكة الشلح المسبل على قامتي، ومددت له يدي وأبنت بالأخرى  
محتضناً يده بحرارة إيماناً في الشود، وأوشكت أن أفلق يده لتلك  
الأنسامة الصافية التي أطقها في وجهي، كنت أظن أنه عصني بها  
دون الآخرين.. وبعد أن استلمت درعي واستكنت في مكانتي  
المخصص وجدته يوزع تلك الأنسامة على جميع من يصعد من  
الزملاء للتقاعدين حتى إذ التعدت الكاميرات تهدم وجهه ولحنا بيا  
خرباً مقلماً بذلك الميوس المشع بين حاضيه وضيفه التبرم ممن  
صعد للسلام عليه.

### بعد يومين من تسلق الدرع

استيقظ كعادته، ووجد أن الجميع منشغل بالنعاب للعمل والبعض الآخر للمدارس وزوجته نائمة.

خرج إلى الشارع وعاد بصحيفته. تلمى أن يرثشف كأساً من الشاي. تحرك لإيقاظ زوجته لكنه أشغل عليها فحركها فتسقط في فراشها ككعبة حائرة.. دلف للمطبخ وأعد إفطاراً باسماً (عيش وحبون وزيتون وتشكيلة مختللات) وساعد في تجهيز كأس شاي، انتهى من قراءة صحيفته وقام بأعمال عديدة.. رتب أوراقه القديمة، نظف ألواني المطبخ، أصلح أقباش الكهربياء المصطوبة، رتب ألبسة أبنائه، مازال الشئ يغزوه من كل جانب، اضطر أن على التفرغ مراراً، حفظ الكلمات المكتوبة عليه، تحرك في كل الغرف ووجد نفسه يحصى عدد البلاطات التي تغطي غرف بيته الخمس ثم التفتل لأعضاء عدد السلام التي توصلته لبيته يومياً.. وكم كان الرقم مدهشاً حينما اكتشف أنه وطن كل سلم ما يزيد على ستة ملايين مرة (ووصل لهذا الرقم بمسألة حسابية بسيطة أعانته للوصول إليها آلة حاسبة كان يستخدمها لتوزيع دخله الشهري).

صدمت زوجته عندما استيقظت ووجدته يمسح أرضية الطر المؤدي للمطبخ، نكتته بغرقة على صدرها:  
- لا كنت يا أمي الناس.

وانكبت على يديه تغلبهما وتخلصهما من تلك المسحة التي اصطفت بالزيت حائلة.. كانت أجسامه مشبعة فزوب اللازنيك:  
- لم أجد شيئاً أعمله. 11

### بعد خمسة أيام من استلام الدرع

الهاتف يرن، لقد إليه يد زوجته، تضع السماعة على أذنها وتسمع منها ما يلي:

- محمد الوزارة تريدك.
- (توب) الآن تذكروا فداعة تركي للعمل! كنت قد تقدمت بالتسماس للبقاء على رأس العمل لستين فدانين، أعيد طلبي مع اعداد مهذب، فهل تراجعوا عن القرار المتسرع في حقّي؟ لقد عرفوا غدري بلا شك).
- ماذا بك؟ ماذا تبدو جامداً؟ أقول لك الوزارة على الهاتف.

تتأول السماعة، وجذبتها إليه محرراً إليها أن تلصق عددا لتسمع اعتراضات الوزارة بعد أن وضع يده على سماعة الهاتف:

- الآن مستمعين مقدار ما تركت من فراغ، كنت جازماً أنهم يحتاجون لي.

لكرته وهي تستج:

- رة على الرجل قبل أن يصيبه الضرر.
- أكتفي أذاك مي لتسمي.

رفع يده من على السماعة وأصدر نحيحة مصطنعة. حاول أن يبدو صوته رحيماً قدر الإمكان:

- أعلأ، أعلأ.
- أعلأ بك، كيف الحال؟
- جيد.



- نحن نعلمك بشدة.
- لا عليك، كنت أعرف أنكم سوف تحصلون.
- حدث ليس بسيط وأنت خير من يقرر.
- أعلم تماماً ما قد يحدث، وأنا متجاوز بعبء خاطر عن كل عيب.
- هذا ما نريدنا عليه، وأنا مكثف أن أعتبر لك بشدة.
- يا رجل لا داعي للاعتذار.
- إذا سترسل أحدا لاستلامه.
- .....
- اتقنا.
- استلام ماذا؟
- المزعج.
- .....
- أنت تستحق مثله... لا، لا بل تستحق أفضل منه.
- .....
- لقد حدث ليس.
- ليس؟
- نعم فالمزعج محمد بن علي يوسف زميلك بالقالية، أنت مقدر هذا الخطأ بلا شك فالأسمان متشابهان ونحن مشغرون صحتك.
- .....
- أما بالنسبة إلى التكافؤ القالية، فقد تقرر حسنهما من رأيك المتعدي.
- .....
- الآن بهما إرجاع المزعج، متى أحب أن يصطك متدوبنا؟
- .....

- ..فصاحب الدرع ضاعب وأقام عليها الدنيا. لقد بلغت  
شكواه للوزير.

- ..

- ما رأيك أن يهلك مندوبه الآن؟

- ..

- أرجوك، لا بد أن نستلمه اليوم قبل أن يعمل تعقيب  
الوزير.

- ..

- سوف أبعث مندوبه الآن.

- ..

- طالا لا ترد؟

- ..

- أسمعني.

صرخة أنثوية ملحوظة نبت في فضاء الغرفة الجسد الرئى في جوارها  
منخفضة.

## المعر

في المعر الطويل أَسَدَت جُدعي بيدي بينما كان نظري منشغلاً  
بناظرة تعذر من التدخين، وثمة خاطرة تعمر مخيلتي:

- إنهم يعتقدون هذه الياقظات ليستعزنا من التلطف بإحراق  
صدورتنا لتترك تلك المهمة لهم. فليس من الأحقر أن  
تقوم بإحراق صدرك بدل أن يحرقه الآخرون؟ وبأية،  
أدخلت يدي في جيبي وتناولت سيجارة وأشعلتها بيظه  
مستشفاً قادراً كفاً من الدخان وضيقه اللداعل حتى  
شعرت أن أوردني تشبعت وأن رجلي انحطت بما فيه  
الكفاية ففقت اشتعالاً أحسست به يصوح في صدري،  
ذلك الاشتعال الذي حاولت إخفاؤه بسعال متند، ولم  
أشعر بالاستمتاع إلا بعد أن سريت كومة كثيفة من

الدخان صوب تلك البقعة وأدبرت لها ظهري متقبلاً  
بعمري في ذلك السر الكهيد.

كانت ثمة ممرضات ينظرن بالجاهلي والسلمين تقذف كلمات  
حسرية لم ألق منها شيئاً، وحزرت أن سب نظراتهن العدائية  
مبعثها ذلك الدخان الصاعد من فمي الصغير. لم ألقأ بهن قلدت  
بعمري بعداً عنهن وإن كانت بي رغبة لمادة هيوتهن الضيقة تلك  
النظرات العدائية، فأعرضت عنهن خشية أن يتشب بهنا شجار فلا  
أفكر على أحد حلي من امرأة. أفضت سيجارتي بلسي ومزقتها مرأ  
قوية محاولاً إعطائهن ظهري، وقبل أن تكتمل استدارني لحث  
إحداهن مقبلة نحوي وأسانها لأبزال بمطرتي بتلك الكلمات  
الحسرية. فترت مني ففاحت منها رائحة عطر رخيص، كان فكها  
يعلو ويهبط بالكلمات دون أن أبصر ما تقول، وعندما أشارت إلي  
والفقاء السيجارة حرت وأخذت أبحث عن مكان لإطفائها وقد زاد  
من ارتياكي أن التواجد بين نظرات هيوتهن بالجاهل وأخذ بعضهم  
ينظر إليّ بازدياد كنت أود قتلها شجار مع رجل عبرنا وقذف  
بنصيحة لم أفهم منها إلا أنني فوجئ بالسلك، كانت تلك المرحضة لا  
تزال (تبرطم) وأنا لا أزال حائراً أبحث عن مكان مناسب لإطفاء  
سيجارتي. كان السر لامعاً لا توجد في طفايات أو شعلات يمكن  
أن أضع بها هذه السيجارة القبيحة، وفكرت بقلتها في السر ولم أكنها  
بأسفل قدمي لولا أن تراجعحت حين لحث بلاط السر اللامع  
والفروش في إحدى جنباته بمساح غالي الثمن ومزين بلوحات  
حدادية، وبعض اللوحات الزاكية ذات التواريخ المختلفة. كانت هيتي  
تدهو للضحك فبحثت كنت أسير كانت تلك المرحضة الخبية  
تبعني بتعليقاتها التي لم أفهمها والتي جعلت بعض النسوة ينظرون  
عن رزائتهن ويضحكن بصوت مسعور، ولم أجد بداً من تركها

بين أصابعي متحسلاً لسعالها الحارقة، وعضد كراً تلك التحذيرات التي  
كما تقوم بها من إطفاء السجارة على جفوننا في بدء تعلمنا شرب  
الدخان. ولم تكشف تلك الممرضة بهذا الفعل ولم نتركني حتى  
وعلقت سيجارتي الشطقة بداعل جيبي، لترتفع ضحكاتها من كان  
بشامعدنا، وتركني بعد أن سقطت كلمات يبدو أنها درس في  
السلوك العام. بعد أن غابرتني استندت إلى حدار المر حاضناً  
نصفي الأعلى يدي ومغموساً إحدى رجلي كمن بهم بشفها عقاب  
صارم. في هذه اللحظة برغت فتاة من أفر الممر كانت تمشي برمة  
متشاكلة وتتطلع نحوي لا تفيد عني، وكلما التزمت عثقت عينيها  
بوجهي حتى إذا والزني رفعت (بشفها) ودققت النظر في وجهي  
وكأنها تبحث فيه عن شيء ما، وظللت لبرهة تحدق بي .. كانت  
عيناها السودوان تنظران شيئاً غامضاً محز وجهي عن إمدادها به،  
وعندما رأني جامداً كالخفاش الذي استند إليه صكت وجهها  
وهزني كرسيف متهدم.

عطت .. فأحسست برغبة في إقفاء أثرها، فحذيت رجلي القومة  
وأطلقت سراج نصفي الأعلى الذي كنت أحضنه بسلامة، وربما  
استندت يدي صوب خترتي لإصلاحها، فللذي أذكره جيداً أنني  
مضغت طرف عيني وسوكت به أنفاتي الصغراء بحنف حتى لم  
بعد لمة ريق يساعدها على الانزلاق بين تلك الأسنان المبرضة،  
ورفعت جذعي لأقل من على ذلك الجدار وتبعته خطواتها المتداقة  
البطيئة. كنت أسير خلفها على مهل مدباً عدم أكثرني بها ومنطقاً  
للأفئآت المهاداة للشارة على امتداد ذلك الممر. أحسنت بوقع  
أفئاسي خلفها، قباضات، فسمرت في مكاني، كنت خائفاً وحائراً  
نحبرني سؤال حاد لم أجد إجابة عليه:

.. لماذا الخوف حينما نسير خلف رغبنا؟

كان سؤالاً ساذجاً سقط عند السقاء عينا حيث شئت  
 انصاعها العذبة، والزوت حائياً نعت بحقيقتها البهوية وانقطع  
 صوبي بحلور. تراخت شعاعني حينما خطر ببالي أن شخصاً  
 ما ينصع، فأسندت خذعي بجوار عيادة (الباطنية) وشعرت  
 بحرقه من تلك العيون التي وحشتني أمامها للتشغل بوجودي  
 للحظات كاسرة ملالة الانتظار، حين لحني وقد توقفت أملت  
 حقيقتها بحقل وواصلت مرور المسرة فتجاسرت ونصعتها  
 شعرت بالغيرة لتدغني حينما رأيتهما تعين النظر صوب شاب  
 كان يذرع الثمر ذعاباً وإياباً محتضناً نصفه الأعلى بيديه،  
 غياطات عضوانها، ورفعت صوتها مسائلة:  
 - ألا يوجد هنا هاتف؟!

وعندما رأيته مقيلاً نحوها، أسفرت عن وجهها، فلمحت الشاب  
 يرفع عقابله ويحد إصلاحه، فسمعتها تهمس له:  
 - كذبت أن ألق مع حمار كان يحضن نصفه الأعلى  
 بيديه.

فرد الشاب وانصاعته تآلق:

- ألم تعلق على إشارة العقاب.
- كنت أنتظره أن يفعلها لكنه ظل يحملك في وجهي  
 كنور أله،

ثم جليها من يدعا صوب المصعد:

- تعالي إلى هنا قليلاً.
- لا..لا أستطيع أن أألمر فاني ينتظرنى بالخارج، بكفي  
 أنني رأيتك ودع الخلوس لوغت أمر.

وألفت بين يديه مطروفاً له لون المراهقة، وعادت لتهادي كسحابة بالغة. اصطدمت عيناها للمرة الثانية، فأسرعت أخفض نفسي المرفوعة - منحت لك الفرصة فلا تفلتها.

عمقت بصري بوجهها، وحددتها ببالقة - كما كنت أتصور :-  
- سيدتي، يوجد هنا هاتف.

انحرفت عن مواجهتي ورفعت صوتاً غليظاً:  
(الخطبة) -

وواصلت تهاديها بذلك، حارة رائحة عطرها القاهر خلفها، وقبل أن التفت لمواصلتها تبعها حرفتي قهقهة عالية كانت لشاب يحمل مطروفاً له لون المراهقة، فأجسست بشقاؤل أمام ضحكته المرتفعة وأنقته المهيبة، فأستندت جذمي إلى جدار المر وأخرجت سيجارة وأشعلتها جداراً نفساً عميقاً لأسكت سعالي الذي لما فجعته، وحين طحت تلك المرحضة مقبلة بالجلعي وهي تظهر بكلحاتها المحرقة، أخذت أركض صوب بوابة الخروج.

رجب ١٤٠٨ هـ





## الحل الوحيد

لم يكن بدور بخشدي كيف يمكن أن أشرح له بما أحس حيث كان يقف على حسني الهزيل بقامته الفارغة، ولقد أسقط بحلقتي ملقعة خشبية وبين الحين والآخر بأمرني بأن أصرح صوتاً أشبه بالاستفراغ، قول: أوقد سمعها مني مراراً فقي كل زيارة لأعقب إليه بحلقتي أنصتبع على ظهري بعد أن تكون ممرضة قد أخذت قياساً حرارتي، وضغطتي، ووزني، ولا يعود متيقناً عليه سوى التبرير مساعدته على صدري، ولحرس تلك المعلقة الخشبية أسفل قاع لمي. وكان يحدث هذا مع كل طبيب أصله، وأخرج وأنا لا أزال أعاني من مرضي الغريب حتى أن كثيراً من الأطباء دفعوني لزيارة إحصائيين نفسيين، وهؤلاء بدورهم أعالجونني على أطباء عضويين، وكان آخر مطاقي عند هذا التدكتور الذي راق لي، فقي أول زيارة أجلسني أمامه، وأمطرني بالأسئلة بينما كان بدون كل ما أقول في (توتة) صغيرة، قلت له:

- أشعر بمرارة تلازمي أينما التهمت. وبعد فحوصات،  
والجائيل، وأشعة مقطعية، وطوليف، وملونة، لأخفني  
بؤس.
- أنت لا تشكو من شيء.. أفلا تستطيع أن تتعرد على  
هذه المرارة؟

رعدت عليه بعجز:

- لا أستطيع أبداً يا دكتور فهي تنصيب في داخلي  
بمرارة، وتحمل حياتي إلى كابوس.

حاول التخفيف علي:

- لا عليك، فكلما شعرت بها تناول قطعة سكر وأذهبها  
بحلقك.
- لقد بلغت من السكريات أكياساً تعطيني بحرّاً سكرياً،  
ومع كل هذا فالمرارة التي تعبس بها تزدد، وتتدفق  
في حنفي بمرارة بل على العكس، فكلما أدليت من  
فهي شها من تلك السكريات سالت المرارة في كل  
أجزاء جسدي حتى أشعر أن شعر بشرتي يستشلق  
هزاة مرارة.

وخرجت من عنده بعد أن أوصاني بملاحظة حالتي ومشي ثقل  
المرارة.. ومع تكراري الطهي، البدء، بدأ يشعر بالسأم والضغط من  
حالي التي أقمته، كنت أحس بذلك دون أن أحرز على مصارحته  
بما يخسر بداخلي، وما أنا أفضح على شهري، ولا أعرف كيف  
أشرح له بما أحس بعد أن استفدت كل الطرق الممكنة لشرح  
حالتي.. أنهضني من رقدتي تلك، وتسم في وجهي:

- كيف هي الحرارة (معلك) الآن؟
- أشعر بأن فمي بحر من حرارة تفهض كغير لا يتغلب.
- ألم تلاحظ متى تخف؟

عصرت ذاكرتي، فاستمععت تلك اللحظات على الهيء، وبعد جهد وتركيز تذكرت بأنها تلاحش بمجرد أن أذكر الموت، فصحت به:

- نعم، أشعر بضعفها يزول من فمي كلما تذكرت الموت، أو فكرت فيه!

فقر من مفعله صائحاً بفرح:

- هو الحل الوحيد.. نعم هو الحل الوحيد!!



## غياب

وحمله إعطاف من المدرسة بتغيب ابنه لأسبوعين متتاليين فأصابته  
الذهشة وتوجه إلى إدارة المدرسة مستكراً ومد بالحطاب إلى المدير  
مستأثراً:

- كيف هذا؟
- كما ترى... فابتك عقيب عن المدرسة هذا أسبوعين.

أخذ الأب صرغاً:

- ولكنه يخرج يومياً حاملاً شتخته، ويتجه إلى المدرسة  
بمساعدة البعض، ويتكدر كثيراً من يومى الإجازة.
- قد يكون هذا صحيحاً لكنه لا يأتي إلى المدرسة.

أخذ المدير يحدق بالأب الدهول والشعوره بأنه غير مصدق أردف:

— إذا أردت أن تتأكد من صدق قولِي فاذهب وانظر  
في جميع فصول الصف السادس وإن تجد.

عاد الأب إلى البيت حائزاً في ما يصنع، وبعد تفكير عميق قرر أن  
لا يبالغ ابنه بما علم، وأن لا يشعره بشيء البتة.

وفي صباح اليوم التالي استيقظ فوجد ابنه متلفداً ومتجهزاً للخروج،  
فركبه يقضي واقفي أثره.

كان الطفل يسير في ممرات ملقوة وبعده بين لحظة وأخرى إلى  
إصلاح هندامه، وفي بعض الأحيان يخرج مشطاً من حقيبته ويسرح  
خصلات شعره القصيرة حتى إذا بلغ الشعطف الذي يؤدي إلى  
مدرسته تجاوزه وانحنى مبتأً ليسور جداراً قصيراً ويمد يده لأتصاف  
وردة حمراء تدلت من فصوص شجرة أحد البيوت القديمة، وسقط  
على الأرض يتوازن إنسان تدرب على هذه الحركة حتى أتقنها،  
وأخذ يصلح حبله ناقضاً التراب الذي غلن بنوبه ومعبداً لتسريح  
شعره للخلخلة، وعندما رضي بهيئته حمل حقيبته ولباعدت خطواته  
حتى إذا بلغ إحدى البوابات توقف بحوارها، وأسند حقيبته إلى  
جدار تلك البوابة بعد أن أخرج منها متديلاً أحد يديه مسح به وجهه  
ورقبته باهتمام، ووضع الوردة يده اليمنى منتظراً في مواجهة تلك  
البوابة. مضت لحظات قصيرة، وصارت الباب صريراً ثقيلاً لتسرع منه  
فتاة ترتدي (مربولا) بشي بأن صاحبه طالبة بالرحلة الثانوية.  
وعندما أغلقت تلك الفتاة الباب تقدم منها الصبي، وتناولها تلك  
الوردة، وحمل لها حقيبتها، وانطلق يسير أمامها، وعندها تحذقان  
بشعر إلى كل من يحاول اختراق (ميشة) تلك الفتاة، ولمه يطلق  
سبلاً من الشتائم لكل من يحاول أن يقذف كلمة في طريقها،

حتى إذا بلغت باب مدرستها تناولها حقيبتها، وتبعها بعين متلهفة حتى غابت بوابة المدرسة هذه، فقفزت بشغفه جانباً، وحلست بجوار (حمدة) كانت تنبع لوزاً سودانياً وهندياً، وفصفاً، و(محمودة)، وعبداء لا تفلان من السحدين بتلك البوابة الغريبة الغلظة، وكلما تباحث الوقت زادت حركته توتراً، وكثرت التفاتاته، وقد أمضى وقته باللعب منفرداً بالألعاب شتى، ثم انتقل إلى شجرة سدر وأخذ يقذف حبيباتها الباضحة بالحجارة دون أن يتكفى الجمع ما تساقط، حتى إذا مليت انتقلت إلى أحد الدكاكين وعاد يحصل مشروباً يلزماً لم يكمل شربه، وتبرع بالجلوس بدلاً من تلك (الحيلة) العجوز لتغيب زماً من الوقت وتعود لترك لها بضاعتها وبعض القود البسيطة التي باع بها خلال غيابها، ويطلق ركنها في دوران محبوم حول سور المدرسة حتى إذا تجاوز النهار انتصافه، وارتفع جرس المدرسة معلناً انتهاء اليوم الدراسي تناول شغفه وتسير أمام تلك البوابة يحدق بالمفتحات الخارجية، وإذا أطلقت تلك الفتاة من بوابة المدرسة ركض باتجاهها وحمل لها حقيبتها، وأطلقا عائدتين، وقد أطلق لسانه بالشكائم لكل من يحاول أن يقذف كلمة في طريقها!!





## غزل

سيارة غلغلة، ووجهان صفيان تغور منهما الصحة والشباب، وغر  
منشأة، ورواح ناهية تغادر سيارتهما حبوب الشوارع التي لطاعها  
في مضاربة الغمام السوداء.

وكانت لمة غفلة تسير وحيدة، وكلما عطت طرقت نحوها العيون،  
والأحناق، قلها مشية حماسة، وقد تنوى، وتمايل كغصن رطب،  
تدك بمشيتها القلوب، وتمضي غير أيهة بما أحدثت من تلويحات ولحير  
مكررة بكلمات الغزل التي كانت ترسلها بلوعة.

سارا بحوارهما، وعظما سرعة سيارتهما حتى تحدثت لندحرج...  
أحدهما أخرج رأسه من النافذة وأطلق لسانه بحرارة:  
- لم أحسب أن القمر غادر السماء

جسدت بدلال، وعطفت برشاقة، وهي تعاري ابتسامة كادت  
تسرح، وتستحيل إلى ضحكة، وانعطفت إلى شارع أكثر ازوا..  
نبحا:

- (تفضلي.. نوصلك إلى آخر الدنيا إن أردت).

التفت نحوها، كانت عباءا - من حلف (الثينة) - نغريان بالسير  
عقلها حتى يلوح حدود العبد

ضرب السائق مفود السيارة بعنف:

- (يوه القريبي بن هذه الأهداب).

تنبه الشابان لوجود مجموعة من أهل الحي يتباطئون أمام إحدى  
البقالات، فأسرعا بتجاوزها، وانظروا غير بعيد حين سبقتها  
رائحتها.. أحندهما كان يتربص بقومها من خلال الشرفة، وهي  
تتهادى كموجة كسولة، عبرتهما ببطء.. همس:  
- لو تعلمون بأنك تسيرين على دمي وتند...

ولم يستطع إكمال حديثه فقد غدت أبعد من الهمس، فدحرجا  
السيارة في أترها، وغذف أحندهما برقعة صغيرة بالمجاهها، انجست،  
وانشطتها بخلة، وواصلت سيرها.

قال أحندهما بشوة متصرة:

- (لقد خمنت الصنارة).

مسح السائق لفة تقافرت من عينييه، وترك لحيه يطلق ابتسامة  
ناخبة، وردد بنخب:

- (اسحب الجلب يهدوء).

سبلعاه، وترجل أمدحها فاتحاً لها باب السيارة:  
- لا بد من إصاالك!

رفعت الفتاة صوتها - تخالطه ضحكة مكرومة:  
- (طلب يا محمد.. سأعبر أُمِّي)!

تহারى فجأة، وكنم دهنه يوضع يده على رأسه بلعول وركب  
السيارة حاثاً زميله على الانطلاق، وهو يلطم بحرق:  
- مصيبة.. إنها أُمِّي!!

وانطلقت السيارة، تفرخ الرمل وحببيبات الحصى تتقاذف بعنف،  
وحملت وهب يسيل بينهما.



## إملاء

في أول يوم دخلت فيه إلى المدرسة صدمني وجهه.

كان يحثكم على وجه صخراوي عابس المسمات، فعين البسة،  
شحيح الطية. له شارب كث، وعينان مزروعتان بكثاب الإملاء.  
وصوته الخاروني ذو الصرير الطاء ينخر رأسي بقسوة. يتنحدر في  
الفضيل، وعصاه تهتز فتعكر فتوبها الصغيرة. يدور بين طاولاتنا،  
وعلي علينا ونحن نكتب، ونكتب، ومع كل قطعة إملاء كانت آتية  
عصا تنكسر، ودموع تتأثر، وأخوف يسيل من الأفئدة. يكفي أن  
تخطئ خطأ طفيفاً حتى يثور، ويعدل عطاك بعصاه الربابة التي ما  
أن تلامس جلدك حتى تبهك بالدم.

وقفت في مقدمة الفضيل وأطلق صوته:

- كان شهياً فارساً...

وعندما مد بصره في كرامتي صحتي.. ورفق صوته غاضباً:  
- اسمعوا ما كتب هنا الحمار: (كان سقيهاً  
مجاناً...).. أليذا ما تفوهت به؟

فجاءت تلك الأصوات المروء:  
- لا يا أستاذ

فشدني من شعري وأوقفني بجوار السيورة أمراً ليأي برفع يدي  
وقدمني اليمنى.

في البدء أضفت حرفاً، وتعبت من الوقوف، ومع الأيام أضفت  
جمللاً ولم أتعب.. كنت ليل أن يمر بصره على كرامتنا أفرح  
وألف بجوار السيورة راحاً يدي وقدمي اليمنى.. ثم تبني الآخرون  
حتى وقف الفصل كاملاً.. تقطر وجهه بالبشرى وتصلع إلى وجوها  
بمكر:

- جميل أن تزودوا أنفسكم ..

ساعتها شعرت بأني في حاجة لأن أريح قدمي، فأستلقيتها بعنف  
على صوته. حينها ارتفعت عصاه على هامتي لينتظر دمي على  
حذائي الأيمن.

## المضطجع

كنت أنضطجع على سريري وأتمن بتذمر ميثال، وقد بلغت حداً من القنوط يجعل الحياة تنسرب من عروقي كما ينسرب الماء من شفاة طفل، ولم أكن لأحس لهذه الدرجة من التهاافت لولا أنني قد نحت التأس باداً على صفا طبيي المعالج، ذلك التأس الذي حاول تخفيفه بحلف استسارته الرقيقة، فتنزو من بين أهدابه كبحرمان يتسوخ صغير يصب في داخلي ويحرف كل طمأنيتي. (مضطجعت) الحقيقة على كنفتي، وكلماته الشحيحة التي كان ينزلها على مسامعي كلما وقف لمعاتتي كانت تؤكد بلوغ المصعب إلى نهايته:

- لم يعد أمامك إلا أيام قليلة، وتغادروا.

كنت أفهم هذه الجملة تماماً فهي مرادة مبطنة، أو تعزية مبكرة وإن كانت تحمل أملاً خاطئاً في إمكانية أن أعود لحياتي الطبيعية، فقد

كنت أعلم أنها أيام قليلة وألحف بالمرأب، والصمت، وأبسى هذا العذاب الطويل الذي أحياه منذ أمد بعيد. لئلا تكدت الحياة في ناظري أصغر من حصة طوّعت بها الريح، فلم أجد أكثر ثلثي، وقد أضلقت كل شيء لحبلي، أناطاري، شتائي، راحلي الفزقة، والدمري الذي لا ينضب إلخ. وزاد المكان من تهبجي، حيث يذكرني بصمت القصور الخالد، ثم يكن يشاركني هذا العمر الواسع سوى محوّر أكل الشلل نصفه الأسفل، وأخذ السرطان ينضم نصفه الأعلى بقودة بينما هو لا يزال يحيى بنفسه وكأنه مقدم على حفلة عرس، فقد كان يدعو المرحضة لتتطلب له ذقه وشاربه، أو أن تقلم أناطره، وعندما يستكمل زينة، يدعوها لأن تعصب عليه عطر الطيبون، وكان لا يخرج من غمز إحدى المرحضات أو مازحتهم ودعوتهم لأن يقرّره به، وأنقسم أنه يستطيع مناكحة أربع نساء في وقت واحد. وأمام نجاحه المسافر لم تكن المرحضات يدين تذرّاً من تسبب لسانه، حتى أن إحدى المرحضات أصبحت تاديه بعرض المستقبل فيسعد لذلك ويهش في وجهها كلما أقبلت أو توبرت، ويهش على مسامعها كلمات الغزل المبذل الذي تسبحي أن تسعه من مراهق.

وكان مستقبل الأطباء والزوار يتصكبت لا ينتهي، ويسرد على مسامعهم أماني سمجة لا يرق إليها ضموح من تركض بأورده الحياة الجامحة، وكان يسألهم دائماً عما يجري في الخارج، ويطلبهم بتزويده بصور الناس، والشوارع، والحدائق. كان يضاهي بطلباته الغريبة، فقد دأب على رؤية الشروق والغروب كل يوم، ويصور ويصجر إذا تلكأت إحدى المرحضات عن أداء هذا الدور، لذلك كانت معظم المرحضات تأتبه في مثل هذه الأوقات ويفقدنه بعربة إلى حيث تشرق وتغرب الشمس. وقد زاد دأله ويطلب



رؤية اكتسبها البشر حيث يجلس في مواجهة نافذته المشرقة على  
القطعة يتلهم قصائد للقسر والحياة، وعندما يعود مضايقتي وإشغافه  
التركيب فكنت أستمع إليه بثلث، وقد يبلغ الضيق من مبلغاً أغنى  
فيه أن قدغته بما يحاورني، فأتراجع حينما ألقه مقلوباً في سريره  
كعود ميسر ليس به من حركة إلا أثر الريح العابرة لثيابه، مع هذا  
لم أتراجع عن الصراخ بحددة في وجهه مطلقاً لأنه أن يكف عن  
مضايقتي .. ففي ذات يوم صرخت فيه بحق بلهفي:

- ألا تستحي؟ لم يعد بينك وبين القبر سوى شبره  
وأنت لا تزال معلقاً بهذه الحياة، وكأنك بيت هرم  
يكابر دقات مجول قاني.

كان وجهه خالياً من أي تعبير فراد من غيظي .. أكملت بروح  
تبحث عن إلهاء:

- أرى أن المهر وكفى المهر لك أن ترقد بسلام كي لا  
تتعيب الموت وهو ينزع هذه النفس التواقفة للحياة،  
واللشبة بها كغرفة حشرة.

وعلى غير ما أتوقع انفرجت أساريره وضحك بعين، وحلب:

- لا يزال ثمة عرق يتض غم لا أستمع بهذا الجلال؟

صحت حتى أحسست بألم يمتد في حجري:

- أي جمال وأنت على ما أرى؟  
- وماذا ترى؟

أغاضني بروده . ولعل أن أواصل صراحي استوى فأردأ نصفه المحي  
بانهاج، ومردأ:

- انتظر، لا أزال نفسي، ولري وأشب، وأسمع.. نعم  
ما زلت ألقع بالحياة.

وعندما بلغ من الغضب مداه، طلبت منه أن يهجرني، وأن يقطع  
حديثه معي بذلك، وأن يتركني ألقع بالفطار الموت كما أشتهي!!

بعدها لم يعد يحدثني، وانتغل بمرسته التي كانت تجاوره،  
والتي أصر على أن يكون لها حوض. وما أن نهضت بساقها  
قليلاً حتى نادى بإصراره على أن تغرس جذورها في الأرض  
بدل أن تظل في (أصبعي) زجاجي يحل بوقاتها قبل أن تنمر.  
وأمام هذا الغضب الذي أحال المستشفى إلى ضجة يومية لا  
تنتهي استجاب مدير المستشفى لطلبه، فقصت عدة بلاغات من  
العير وغرست مكانها جذور تلك البينة، فظل يتعهدا برعايته  
في كل لحظاته، فألقه بدلي نصفه الحي، وسكب عليها الماء،  
وبزول ما يتجمع حولها من حشرات - على حد زعمه - وقد  
أفعل عصافاً مع إحدى العاملات والهمها بأنها تعمل على إمالة  
نبته وأمعن في اتهامه حين وصفها بالشخافة والتفادها للأمانة  
والشعور بالمسؤولية وعددها بأن يشكوها لمدير المستشفى إن لم  
تقم بتنظيف العير يومياً وتجنب نبته مخاطر الحشرات، وقد  
استجابت تلك المسكينة لأوامره فكانت تحضر يومياً لتنظيف  
العير وجلب الماء الكافي لري تلك البينة التي نهضت وأعلنت  
في السور للأعلى. ويبدو أن سبب استجابتها لأوامر هذا السيد  
هو ما كان يحدثه من شغب ينتهي بموافقة مدير المستشفى  
لطلباته، فقلل أساليب طالب إحدى المرضات بأن تنزل سريره  
إلى مستوى الأرض حتى يكون قريباً من جذور نبته، فزعرته  
المرضة بعنف مما جعله يحدث شغباً وعصافاً انتهى بأن أمر

مدير المستشفى بأن يساوى سريرته بالأرض، وأن يحسم من راتب تلك المرحمة التي استهانت بهذا الحرف.

كانت الأيام تقضي ولينة حيلة لتفزع منها روائح الأدوية والعطر الزمهرير العالق بلباب الممرضات، وكان الضممت حضور نافذ، فهو القابع الوحيد في ممرات هذا المستشفى الكبير يهرع دمائنا في كل حين ولا يتركنا طرفة عين، وإن تقلقهنا بأنينا استدعى إحدى الممرضات لوعزنا بإحدى إسرها المومة لتذهب في نوم طويل، لتستيقظ أكثر احتراماً لهذا الضمت اللهب، وأن نلد أنينا لأعمالنا بسرية تامة.

كان جاري يشغل نفسه بأي شيء ممكن بالرسد، والشعر، وتعلم فن الطهي حتى أنه أخذ يتعلم الخزل والتفريز، وعندما برع فيها كان يقرئ الشالات والشاويل ويقدمها كهدايا للأطباء، والممرضات، فكسب حظوة إضافية عند معظم العاملين بالمستشفى مما جعله يتقدم بطلب للإدارة بأن تقيم له معرضاً يعرض من خلاله كل أعماله المتنوعة.

كنت أشعر أن وجوده معي استحال إلى عذاب إضافي، فهو لا يبدأ ليلاً أو نهاراً ويصر أن تبقي الإضاءة بالليل لكي يتمكن من إنجاز أعماله المتنوعة، وحيال هذا الإزعاج المتكرر طُلبت إما نقلتي أو نقله من هذا المكان، فعاد ظلي مشفوعاً باعذار رقيق، مبيا بأن المكان الذي تشغله هو المكان المخصص للأمراض المستعصية لذلك انتقلت من جاري باحترار وساوسي التي لا تنتهي فكنت مع كل لحظة شقيق لوفن أنها ستكون الأخيرة، فأحبسها بدعطي خوفاً من أن ألقط حياتي عبر الزفير البطيء، وكلما أمضت في ترقب الموت

زدها بأسي وكبرهي لثلك اللحظة التي تصابها في محبتها، وما أن  
 تأتي ساعة النوم حتى أحفل عروفاً من أن تسرق أنفاسي في لحظة  
 مني، ولم تعد تلق في ذاكرتي سوى لحظة الثوب القامضة الرعيه،  
 فقلوبت وأصبح صدري يمزج بالحروف الذي لا يهدأ، وبعثاً ذهبت  
 أنصاع تلك الأبر في نفض الذبول والضمور اللذين اعتصما  
 جسدي.

ذات صباح أغقت على صباح ذلك العجوز، لموحدته قد استوى،  
 ويده ثمره غريبة، وعندما رأيته أصدق به زاد صراخه، فنهضت من  
 سريري - لأول مرة أنهض منذ أن قدعت إلى المستشفى - وصدري  
 يغلي غضباً منه، وتوجهت نحوه وأنا عازم على طرده مهما كانت  
 النتائج، وقبل أن أحمل إليه كنت أسمع بصيح بي:  
 - انظر لقد أثمرت شجرتي.

شدت يدي، وجمعت إلفاتها على صدغي لكنني تراجعته حينما  
 رأيته يمد لي تلك الثمرة، وهو يتحدث بشر:  
 - بسعدني أن أقدم لك أول ثمرة أحبها من شجرتي.

أحبست بالحمل إزاء انصافه الواسعة وتودده، فتأملت تلك الثمرة  
 وعدت إلى سريري والغيظ لا يزال يأكل صدري.. كنت أود أن  
 أحطم رأسه وأزواج من هذه الذي لا ينقطع، كان يترصد بي من  
 مكانه، وعندما رأيته أضع ثمرته جانباً دون أن أفسسها حدثني  
 عالياً:

- أود أن تفرحن وتناولها كالأول وجبة صباحية.

كانت عينه أكثر إلحاحاً من كلماته، فاستحييت لظنه على مضض،

وأدبعتها من فمي وقطعتها، وعندما أخذت أكلوها شعرت بهضم  
 لهذا كالحق، فواصلت قطعها وأنا أرتو إليه بهضمي.



## جفت الدنيا

جلس على كرسية وأخرج رسالة أخذ يلقوها للفرقة العاشقة وفي كل مرة يجفف دموعه ويهض لثلية نداء جرس الدكتور... في آخر مرة سمعت الدكتور يصيح به بالفعال:

- لم تعد صانعاً لشيء والرأي عندي أن يعفوك من الجماعة.

وعندما عاد كانت عينا حمروان، وشيء ما يغور بهضبه على بحيل إليك أنه سيستحيل إلى تنور وجلس على كرسية الجوارر لقمدي وأخرج تلك الرسالة، وأخذت عينا الدامتان تركضان بين سطورها، فالتفتت به وقرأت:

بسم الله الرحمن الرحيم  
حضرة الوالد العزيز محمد بن أبو ركة المحترم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

تبعث رسالتنا هذه متمنين من علي الفديري أن تصلك وأنت تنعم بالصحة والعافية وإن سألت عما نحن في غير وعافية لا ينقصنا سوى عدم رؤية وجهك الغالي.. نخبرك بأن الآين جلال أصيب بالتهاروس ولم يتمكن من علاجه في البندر حيث طلب الدكتور أموالاً كثيرة، وقد دعا البقرة لكني نعترف من ثمنها على بقائنا في البندر. نريد منك - أيها الأب الغالي - أن تبعث لنا قيمة العلاج في أسرع وقت خصوصاً ونحن نسمع من الشغريون أنها تقتل مثل ما قلت عبدالحليم حافظ - وفي ختام رسالتنا نبلغك تحيات الجميع

الرسالة:

زوجتك التي طال انتظارها

أم جلال

**ملاحظة.. أبي الغالي:**

قرأت لأبي رسالتك الماضية ولم أفهم معنى قولك: جفت الدنيا ولم تعد كما كانت.

أبي العزيز: لا أدري أن ترسل لي ما وعدتني به، فقد أصبحت من زميلاتي الثلاثي أصبحن يتهكمن علي كلما قلت: إن أبي سوف يرسل لي أساور من الذهب الخالص.

ابنتك المحبة

زهبة بنت محسنين أبو ركية

حرر في ١٠ - ٨ - ١٩٨٠

تتبعه لوسودي ومشاركتي إياه قراءة الرسالة، فاحفظ وصاح بنظري:



— ما تقوم به يسمى قلة أدب.

فشعرت بالاحمل والحر والركض صوب الشارع لأمرق محلي  
بعيداً عنه.



## تحقيق

حدد بي ملياً وحاول أن يبدو لطيفاً، أجلسني بجوارهم، وتناولني ورقة من رزمة الأوراق المخبورة في مقلتي، ويتردد همس:

- اكتب
- ماذا أكتب؟
- اكتب حالك القسبة.

تنازلت الورقة، وعططت عطاً عريضاً:

## فرقان

اندلكت من شفتي اسمامة مرثوية، ورفع فترته بيده اليمنى:  
- كلنا ذلك الشخص، اكتب كلمة أخرى..

وناولني ورقة جديدة، فأمسكتها وقلت: قد فعلت:  
- اكتب ولا تحاول البحث عن كلمة معينة، اكتب ما  
يخطر ببالك مباشرة .. اكتب.

فكتبت على الفور:

**نكتة**

- جميل: اكتبها الآن.
- لقد أد أن الحياة نكتة.

أبدى لزمري: لا أريد أن نعدنا عما حدث من أجله.

لم أت رغبتي حتى تقول (عما حدث من أجله)، وما هو ذلك الذي  
حدث من أجله؟  
- أنت نجيب فقط.

ناولني ورقة أخرى: قلت نكتة، اكتب أقرب نكتة لخطر ببالك.

لذا لا ألقها على مسامحك وكفى.

رد بحزم: قلت اكتب.

لمسكت بالقلم وكتبت:

في أحد العروض العسكرية اصطف كبار الضباط المسلم على  
رئيس الجمهورية بينما هو يتلمصهم كأن يبعثه قائد كبير يدم له

كبار الضباط المستقبليين له بينما كان الرئيس مرئياً نظراً على  
رأس الضباط ليصافح كل واحد وفق رتبته، فكان القائد الذي  
يعتبه يقول له: قائد مشاة، قائد مظاهرات، قائد كتية، قائد طيران.

فجاءه مع الرئيس قائداً (أحمر) معلناً عهداً كبيراً من الليبيين  
وكانت نياشته تغرق جميع زملائه فاستفسر الرئيس بتعجب عن  
صاحب هذه النياشين:  
- قائد أحمر وكل هذه النياشين على إيه؟

فأجابه القائد المصاحب له على الفور: إيه قائد التصويبات العشوائية  
سيدي!  
١٩٩ هـ هـ هـ

لم يعد استجابة الفقهائي فضيت فجاءه بينما حلق في ملامحي  
بعض:

- من يملك هذه الروح يجب أن يكون سعيداً؟
- .....
- إذا ما الذي يضاهلك؟
- الوجود.
- لا زيد فلسفة.

هذه ليست فلسفة، لو فكر أحدنا قليلاً لما احتجنا لكل هذا الكم  
من الفلاسفة.

- أي فلسفة تقصد؟
- ألا ترى أننا نأكل بعضنا؟
- جلد.

- أنت مثلاً تعطي الحقائق عظمى من أجل أن تثبت شيئاً ما لا تعرفه، وفي كل مكان ثمة شخص يحقر لأخيه، بينما الحياة أقصر من أن تلعبها في الدفن المتبادل.
  - لقد التفتت كثيراً عما نحن فيه.
  - .....
  - اكتب كلمة أخرى.
- دفع بورقة جديدة وهو يرمي: كما اتفقنا، اكتب من غير أن تفكر.  
كانت الورقة بيضاء وحليمة، أمسكتها رفق وكبت:

طر

- الدهش ورفع حاجبيه وترك ملامحه تتعكر كما يحلو له وقتئذ:
- طر لمن؟
  - للحياة برمتها، فليس هناك حدود من أي شيء، لذلك طر لكل شيء.
  - كل شيء .. كل شيء؟
  - نعم كل شيء، كل شيء.
  - حسناً.

وانكب على كتابة تقريره، وعندما انتهى أدخله في ظرف واسع النحاس، وأخذه للعسكري الذي كان يرافقه، وأوصاه أن يخبئه لي في الطريق. وبهمة مبالغ فيها أعاد العسكري إليّ غودري، وعمرنا ثمراً طويلاً قبل أن تلعب أشعة الشمس الحارقة.

وأدام الضابط وقتاً طويلاً ونهرات وسألته:  
- ما الذي عمله حتى أقام كالمجرمين؟

نظر إلين باستخفاف وأردف: ستعرف بعد قليل.

وفي لحظات وجدت نفسي أركب في سيارة لتنتقل بي بسرعة  
قصوى، مضت عشر دقائق وهي تنهب الأرض نهياً، نصف ساعة،  
ساعة، وبدأ الغوار ينمطكني وظللت لنصف ساعة أخرى أغالب  
التعب بكل الوسائل، وعندما توقفت السيارة، وجدت نفسي أُلطف  
من بوابة كبيرة كتب عليها بخط عربي:

مصلحة الحالات النسبة بالخطاف.

مكتبات الكوكب العائلي



## مؤلفاته

---

### صدر له:

حوار علي رواية الأخرى مجموعة قصصية صاغها عن نادي جازان الأدبي ١٩٨٤

لا أحد مجموعة قصصية صاغها عن مركز الحضارة العربية بالقاهرة ١٩٨٦

ليس هناك ما يهيج مجموعة قصصية صاغها عن مركز الحضارة العربية  
بالقاهرة ١٩٨٨

حكايات القناد مجموعة قصص للأطفال صدرت عن نادي جدة الأدبي  
١٩٩٤

الوقت يمر من هنا رواية صدرت عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت  
١٩٩٥

مدن تأكل العشب رواية صدرت عن دار الساقي بلندن ١٩٩٨  
من بقي في هذا الليل مجموعة قصصية صدرت عن دار الراوي بالدمام  
١٩٩٩

الأيام لا تعني أحد رواية صدرت عن دار الجمل ٢٠٠١.

ذلك البعد، رواية (أنت الطبع)

مكتبات الكتب العاشدة

www.KitaboSunnat.com

عبد خال

# الأوغاد يضحكون

قصص قصيرة



مع بساطة لوحدة الوصف يكون قد أدت  
نواحيها المدرسي، يهدف بكل ما في يده ويظل  
منتقدا عودتها. تلك السيارة أمام المفصلة  
تماماً في هذه اللحظة (بالذات) تكون عيناه  
منفتحتين على اتساعهما فحين تسبق الباب  
تظهر مألها نائرتين من تلك الغلالة السوداء  
فبين قدمان مبتلستان مستديران تنتهيان  
بحذاء يتغير كل يومين أو ثلاثة، ثم يستقيم  
عودها طاعنا القضاء بقامة فارعة رشيقة، تسلم  
عيالها على منورها مخفية تمررتين تفرقتين في  
امتوانهما. معبر الزمير، ناركه جسدا يرافض  
الهواء والامتية بينما تتوقف والحتها التحرس  
مشيتها وقتيت الأمانة في مواضعها كي لا  
تساقط حجارتها كمناء على احتدائها، في كن هذا  
لازيمان مظهر بمقدسيا بيت واحد إذ قدس فقلتها  
في بواشع الواسعة فيمنعها ويعين للنديا  
بملاقى ردفية.

من الكتاب:



دار الفکر للطباعة والنشر  
DAR AL FAKR PUBLISHING

ISBN 9953-21-070-5



9 789953 210704